مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٣- البحث ٧

دور العوامل الفكرية في تشكيل العقلية التكفيرية

أ.د. محمد زرمـــان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة باتنة – الجزائر

المقدمة

التكفير ظاهرة سلبية عرفتها المجتمعات الإنسانية منذ أقدم العصور. وقد تزعمها عبر مراحل التاريخ الغلاة المتعصبون الذين احتكروا الدين وأعطوا لأنفسهم الحق المطلق في تفسيره على ما تملي عليه أهواؤهم وما يتناسب مع مزاجهم الفكري، ثم تجردوا لفرضها على غيرهم فرضا إجباريا لا خيار معه، وعندما واجهوا الرفض والمقاومة استباحوا لأنفسهم حق محاكمة الآخرين ومقاضاة ضمائرهم، وإصدار أحكام الخروج من الملة والمروق من الدين في حقهم، وحرمانهم من الرحمة والمغفرة وتأكيد استحقاقهم للعنة الأبدية. وقد عرفت الأديان والملل والنحل على اختلافها وتنوعها هذه الظاهرة التي ولدت الصراعات الدامية وشقت الصفوف ونشرت الفوضى والعداوات والأحقاد فراح ضحيتها كثير من الأبرياء والمظلومين.

والتكفير انحراف مرضي وآفة اجتماعية خطيرة تنخر في بنيان المجتمع كالسوس فلا تلبث أن تفتته وتهدم أركانه وتشعل نار الصراع بين أبنائه، وتدمر أسس الدول وتتركها نهبا للقلاقل والاضطرابات والتخلف. وقد ظهرت بوادره الأولى في التاريخ الإسلامي أثناء الفتنة الكبرى التي عصفت بالدولة الإسلامية بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونجمت عنه مفاسد كثيرة تركت آثارها الوخيمة فيما تلاها من العصور، وكان الخوارج من أبرز الفرق التي أسست للتكفير، ومارسته ممارسة عنيفة فيها كثير من الغلو والتطرف. ثم عاد وأطل برأسه في عصرنا الحالي في شكل جماعات تدعي لنفسها الحق في فهم الدين على طريقتها الخاصة، وتصنيف الناس بحسب المقاييس التي ارتضتها لنفسها، فهم إما مؤمنون؛ لأنهم يسيرون على خطاها ويترسمون منهجها، وإما كفار؛ لأنهم يعارضونها وينكرون عليها

فهومها، وهؤلاء في عرفها لا يستحقون الحياة فدماؤهم وأموالهم وأعراضهم مستباحة.

وقد انتشرت ظاهرة التكفير في كثير من البلاد الإسلامية، وانتقل أصحابها من مرحلة التكفير النظري إلى استعمال العنف المسلح لفرض وجودهم، وإزاحة معارضيهم من طريقهم، واستحلوا في سبيل الوصول إلى هذا الهدف كل المحرمات وداسوا على كل المقدسات وأحدثوا حالة رهيبة من البلبلة والفوضى، وهددوا السلم الاجتماعي، ووسعوا نطاق الجريمة.

ومما لاشك فيه أن لهذه الظاهرة الخطيرة أسبابها الوجيهة. فهي بالطبع ليست وليدة الصدفة أو الفراغ، بل هناك كثير من العوامل والأسباب التي تضافرت وتبلورت حتى أفضت في النهاية إلى بروزها، وهي أسباب متشابكة ومتداخلة ومعقدة منها الفكرية والتربوية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. ونحسب أن العوامل الفكرية لها نصيب الأسد في كل ذلك ؛ لأن السلوك التكفيري ليس سوى وليد العقلية التكفيرية التي اجتمعت لها جملة من التصورات والمفاهيم والاعتقادات والقناعات الفكرية التي صاغت أفكارها وشكلت آراءها وحددت مواقفها. ومن ثم نتساءل: كيف تتشكل العقلية التكفيرية عند الإنسان ؟ وما مدى دور العوامل الفكرية في تشكل هذه العقلية ؟

من خلال تحليلنا لخريطة الفكر التكفيري واستقرائنا لأهم معالمه وتوجهاته تبين لنا أن هناك جملة من العوامل والأسباب والدوافع الفكرية بالدرجة الأولى تقف وراء هذه الظاهرة الخطيرة. من أهمها الجهل بالدين وعدم التمكن من العلوم الشرعية تمكنا يتيح لصاحبه وضوح الرؤية وضبط الموازين وإدراك روحه ومقاصده، والقراءة الحرفية الظاهرية للنصوص المعصومة وعدم التعمق في أسرارها ومغازيها ومراميها ومعرفة مراد الله منها،

والفهم المغلوط لنصوص الدين القائم على التأويل الخاطئ الذي لا يراعي أصول الدين ومقاصده، ومخالطة الجماعات المنحرفة والتتلمذ على يد الشيوخ الذين يتزعمون الفكر التكفيري ويروجون له، والتمركز حول الذات والتعصب للرأي وإقصاء الآخر المخالف، والتعالم وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، واعتماد المنطق الثنائي إما معي أو ضدي، والانغلاق الفكري، وحصر العقل في زاوية ضيقة مظلمة بعيدا عن تلاقح الأفكار والتفاعل مع الآخرين.فهذه العوامل الفكرية وغيرها مما يتعلق بها تتفاعل فيما بينها وتنتج العقلية التكفيرية التي تتحول إلى طاقة هدامة فتدمر كل ما حولها، وتهلك الحرث والنسل، وتأتي على الأخضر واليابس.

وتهدف هذه الورقة إلى تحديد مفهوم التكفير وتتبع مسيرة هذا المصطلح وعلاقته ببقية المصطلحات الأخرى القريبة منه كالغلو والتطرف، والتأريخ لنشأة وتطور التكفير،وبيان مخاطر هذه الظاهرة على مستوى الفرد والمجتمع والأمة، والبحث في معالم العقلية التكفيرية ومظاهرها وتجلياتها، والوقوف عند أبرز العوامل الفكرية التي تؤسس للفكر التكفيري وتصنع إطاره، والتطرق إلى السبل الكفيلة بمعالجة العقلية التكفيرية وإعادة تشكيلها لتحويلها إلى عقلية إيجابية وفاعلة قادرة على الإسهام في بناء المجتمع والأمة، والخلوص إلى جملة من الاقتراحات والتوصيات التي تسلط الضوء على الأهمية القصوى التي تكتسيها العوامل الفكرية في صياغة العقلية التكفيرية.

أولاً: التكفير المفهوم والمصطلح:

مصطلح التكفير مشتق من الفعل كَفَرَ، ومنه الكُفْرُ الذي كان يعني في لغة العرب الستر والتغطية والظلام، قال ابن فارس:" الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد وهو الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه

بثوب: قد كَفَرَ درعَهُ، والمُكَفّر: الرجل المتغطي بسلاحه[1]"، فكل شيء غطى شيئا فقد كفره، ومنه سموا الليل كافرا؛ لأنه يلقي بظلامه على الأشياء والأشخاص فلا تُرَى، وسموا الزارع كافرا أيضا؛ لأنه يغطي البذور بالتربة[2]. وعندما جاء الإسلام استعار القرآن الكريم هذا اللفظ ليدل به على جحود الألوهية وإنكار النبوة والمعاد ورفض كل ما جاء به النبي – ﷺ – من العقائد والشرائع. والذي يتلبس بالكفر يسمى كافرا: " لأنه يستر نعم الله عليه[3]" ويقابله مصطلح المؤمن.

وبانتقال لفظ الكفر من معنى الستر والتغطية إلى المعنى الذي خصه به القرآن الكريم اكتسى معنى شرعيا عبر عنه الفقهاء بقولهم أنَّ الكفر هو:كل اعتقاد أو قول أو فعل حَكَمَ الشرع بأنه كفر بإنكار وتكذيب ما جاء به الإسلام من عقائد وشرائع وحقائق كونية، وهو عند ابن حزم: " صفة من جحد شيئاً مما افترض الله – تعالى – الإيمان به، بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معاً، أو عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان[4]"، وعند الليث هو "نقيض الإيمان[5]" كجحد الربوبية، أو النبوة، أو "جحد ما جاء به النبي ﷺ أو جحد بعضه[6]"، ومنه الشرك الأكبر. والإعراض عن الدين بالكلية. وعند ابن

(١) معجم مقاييس اللغة. أبو الحسين أحمد بن فارس. تحقيق وضبط: عبد السلام هارون. دار الفكر. ج٥. ص ١٩١ .

(٢) راجع: مختار الصحاح. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. دار الكتاب العربي. بيروت. ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م. ص ٥٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٧٤ .

(٤) الإحكام في أصول الأحكام. علي الآمدي. علق عليه: عبد الرزاق عفيفي. دار الصميعي. الرياض. ط ١. ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م. ج١، ص ٤٩.

(٥) تهذيب اللغة. أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري. تحقيق: محمد عوض مرعب. ج ٤. ص ٣١٦٢.

(٦) الإرشاد إلى معرفة الأحكام. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. مكتبة المعارف. ١٤٠٠هـ. ص ٢٠٣، ٢٠٤.

تيمية أن الكفر: "إنما يكون بإنكار ما علم من الدين ضرورة أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها[1]". والمعلوم من الدين ضرورة كالتوحيد والنبوات وختم الرسالة بمحمد – ﷺ – والبعث في اليوم الآخر والحساب والجزاء والجنة والنار.

أما التكفير فهو نسبة الكفر إلى الإنسان، واتهامه بالجحود وإنكار كليات الدين وأركانه ونزع صفة الإيمان عنه وإخراجه من الملة. وهذه التهمة تقع على من هم على أصل الإسلام من أهل القبلة من الأشخاص، والهيئات والفرق والجماعات والدول، ولا تخص من وردت فيهم النصوص القطعية بكفرهم كاليهود والنصارى والمجوس والمشركين والملاحدة وغيرهم.

والتكفير ظاهرة قديمة عرفتها البشرية منذ فجر التاريخ؛ لأنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالطريقة التي يتناول بها الإنسان المسائل العقائدية، فهناك دائما ثلاثة مواقف بارزة من الدين: موقف المفرط الذي يقصر في أداء الفرائض والقيام بالشعائر والالتزام بالأخلاقيات العامة التي يأمره بها دينه ويتمادى في اتّباع شهواته ومخالفة الأوامر والنواهي، وموقف المتطرف الذي يغالي في التعبد ويشدد على نفسه وعلى غيره في الأخذ بالعزائم ويبالغ في اتهام الناس بالتهاون والتقصير ويجعل من ذاته مقياسا لمحاكمة الآخرين، وموقف المعتدل الذي يحاول أن ينسجم مع مقولات دينه ويطوع حياته لتسير وفق مبادئه وشرائعه بحيث يضمن لنفسه حياة مستقرة ومتناغمة مع سنن الله في الأنفس والآفاق.

وموقف المتطرف هو الذي يلد الغلو والتشدد ثم يفرخ التكفير الذي يحاسب الناس على الضمائر والمكنونات، ويحملهم على ترسم خطاه؛ لأن

(١) مجموع الفتاوى. أحمد بن تيمية. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم. مكتبة المعارف. الرباط. المغرب ج١. ص ١٠٦.

نفسه سولت له أنه قد ظفر بالحق واستأثر به دونهم، فإذا أبوا عليه ذلك أنزل عليهم اللعنات، وناصبهم العداء، وتأهب لإزاحتهم من طريقه؛ لأنهم لا يستحقون الحياة. لذلك كان التشدد في الدين هو أول الطريق الخاطئ؛ لأنه يلد الغلو والتعصب اللذين يفضيان إلى العنف والإرهاب.

وتاريخ الأديان مليء بصفحات سوداء من مظاهر الغلو والتكفير وحوادث رهيبة لجرائم العنف والإرهاب. وليس أدل على ذلك مما جرى في أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت فيما عرف بالحروب الدينية حين جندت الكنيسة الكاثوليكية جميع إمكاناتها المادية والمعنوية لاستئصال شأفة البروتستانت، فكانت محاكم التفتيش وصمة عار في جبينها بما أقدمت عليه من جرائم وحشية في حق مخالفيها من إعدام وحرق وتعذيب وتمزيق وقتل، ثم ما أقدم عليه البروتستانت بعد ذلك من انتقام مريع من الكاثوليك حينما أتيحت لهم الفرصة ليكونوا دولتهم.

وقد ظهر مصطلح التكفير في الفكر الإسلامي مع انشقاق فرقة الخوارج عن علي – رضي الله عنه– واتهامه هو ومعاوية وجنودهما بالمروق من الدين والخروج عن الملة، فاستعظم المسلمون ذلك وجرت على ألسنتهم هذه الكلمة التي أصبحت عَلَمًا على الخوارج، إذ هم أول من أطلقها. ثم تداولتها من بعدهم بعض الفرق الفكرية التي ظهرت على مدار التاريخ الإسلامي كالمعتزلة والمرجئة وبعض فرق الشيعة وغيرهم. وفي العصر الحديث عاد هذا المصطلح إلى الظهور على يد بعض الجماعات الإسلامية المتشددة التي لم تكتف بإبداء معارضتها للأنظمة السياسية والاجتماعية فقط وإنما جنحت للعنف لتحقق أهدافها في إقامة دولة الخلافة وإعادة الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله بالقوة التي ألبسوها لباس الجهاد. وقد تركت هذه الموجة التكفيرية التي ضربت بقوة في كثير من البلدان العربية والإسلامية صدى واسعا في العالم،

وتلقفتها وسائل الإعلام العالمية بكثير من الاهتمام، ووضعتها تحت المجهر لدراستها واستقصاء أبعادها وأهدافها وتأثيراتها. وتم توظيف مصطلح التكفير من طرف القوى العالمية المتنفذة للهجوم على الإسلام وتشويه صورته وتنفير الناس منه، وما زال هذا المصطلح إلى يومنا هذا يسيل الكثير من الحبر ويصنع الحدث في كل حين وآن.

ثانيا: الفكر التكفيري النشأة والتطور :

ولم يعرف العهد النبوي ظاهرة التكفير، غير أن رسول الله – ﷺ – نبه إليها في أحاديث كثيرة، وحذر المسلمين من الوقوع في آفة التكفير، وشدد الوعيد على الذين يتجرؤون على إخوانهم فَيَسمُونَهم بالكفر، وبَيَّن ما في هذا العمل الشائن من أخطار وعواقب وخيمة، فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ لا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلا بِالْفُسُوقِ وَلا يَرْمِيهِ بِالْكُفْرِ إِلا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ ﴾[1]، وقال – ﷺ –: ﴿ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لاخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا ﴾[2].

وقد كان الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – يدركون بعقولهم النيرة وأفهامهم الواسعة أبعاد التكفير ويحسبون له آثاره البعيدة في الفرد والمجتمع، فكانوا يتورعون عنه، ويتقونه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ويلتزمون التزاما قويا بتوجيهات النبي – عليه الصلاة والسلام – وإرشاداته في هذا الشأن لعلمهم بما يجره من فتن وما ينجم عنه من مفاسد، ويحذرون عامة المسلمين من الإقدام عليه إلا ببرهان واضح ودليل قاطع، مع الاحتياط في ذلك، وكمال التثبت فيه، وضرورة التريث فيه إلى أبعد مدى امتثالا لقوله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ

(١) صحيح البخاري. كتاب الأدب. باب ما ينهى من السباب واللعن. رقم ٥٥٨٥.

(٢) صحيح البخاري. كتاب الأدب. باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال. رقم ٥٦٣٨.

السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً ﴾[1]، ويسعون ما وسعهم الجهد لتبليغ كلمة الله والدعوة إليه وتيسير سبل الهداية للناس أجمعين.

غير أن الحال تغير بعد الفتنة الكبرى التي عصفت بالمسلمين عقب مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وما جرى بعد ذلك في معركة صفين، وما تلاها من خلافات حادة بين المسلمين في تفسير الأحداث التي شهدوها، فأول ما نجم عنها فرقة الخوارج التي كانت أول فرقة في الإسلام اجترأت على تكفير المسلمين، وشمل اتهامهم هذا خيار الصحابة الكرام وسابقيهم ممن لهم قدم راسخة في الإسلام، وممن كانوا من الدعائم المتينة التي قامت عليها الدعوة إلى الله منذ البعثة المحمدية، وعلى رأسهم ذو النورين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – ابن عم رسول الله – ﷺ – وزوج ابنته فاطمة الزهراء. قال القرطبي: " ويكفيك من جهلهم وغلوهم في بدعتهم حكمهم بتكفير من شهد له رسول الله بصحة إيمانه وبأنه من أهل الجنة"[2].

ثم سحبوا هذا الحكم الجائر على طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – ومعاوية بن أبي سفيان وكل اتّباعه، وعلى كل من قَبِلَ بالتحكيم مع علي – رضي الله عنه –، ثم على جميع المسلمين الذين لم يقولوا بقولهم ولم ينضموا إلى جماعتهم، قال ابن تيمية: " والخوارج هم أول من كَفَّر المسلمين، يُكَفّرون بالذنوب، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم، ويستحلون دمه وماله "[3].

وأخطر ما ترتب على ذلك إهدارهم لدماء مخالفيهم واستباحتهم

(١) النساء، ٩٤.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. القرطبي. تحقيق: محي الدين مستو وآخرين. دار ابن كثير. بيروت. ط ١. ١٤١٧ هـ.ج٣. ص ١١٤.

(٣) مجموع الفتاوى. أحمد بن تيمية. ج ٣. ص ٢٧٩.

لأعراضهم وأموالهم، وسفكهم لدماء المسلمين في قسوة لا مثيل لها، ثم إقدامهم على اغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أثناء صلاة الصبح غير مراعين مكانته في الإسلام وسبقه إلى المكرمات وتزكية الرسول – ﷺ – له وقرابته منه. وعلى الرغم من الضعف الذي لحق بالجناح العسكري للخوارج إلا أن حركتهم السياسية تحولت - مع مر الأيام - إلى حركة فكرية تؤصل لفكرة التكفير وتضع لها القواعد والمبادئ[1].

وعرف التاريخ الإسلامي - إلى جانب حركة الخوارج - حركات فكرية وسياسية وعسكرية تبنت هي – أيضا – في بعض طروحاتها مبدأ تكفير معارضيها كالمعتزلة والمرجئة وبعض فرق الشيعة بسبب الغلو في تفسير النصوص والتنطع في تأويلها على غير ما كان عليه السلف الصالح، يقول ابن رجب الحنبلي: "وهذه المسائل: أعني مسائل الإسلام والإيمان والكفر والنفاق مسائل عظيمة جداً، فإن الله – عز وجل – علق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار، والاختلاف في مسمياتها أول اختلاف وقع في هذه الأمة، وهو خلاف الخوارج للصحابة، حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية وأدخلوهم في دائرة الكفر وعاملوهم معاملة الكفار، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم، ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين، ثم خلاف المرجئة وقولهم: إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان..."[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصحابة الكرام قد تنبهوا منذ اللحظة الأولى لهذا الخطر الداهم وتصدوا له، واجتهدوا في توضيح خطئه وخطره، وبذلوا

(١) راجع: مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع. ناصر عبد الكريم العقل. ص ١٣٤.

(٢) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم. ابن رجب الحنبلي.دار الأخيار للنشر. الرياض. ط ٢. ١٤٢٧ هـ. ص ٣٦.

الوسع في تبصير المسلمين بما ينجم عنه من الآثار المدمرة والنتائج الكارثية، فقد كانوا على جانب عظيم من العلم والفقه والفهم الصائب والتقدير السليم للأمور نتيجة التربية الحكيمة والتكوين الرشيد الذي تلقوه من الرسول ﷺ، غير أن عواصف الفتنة كانت أكبر من هذه المساعي، فذاق المجتمع الإسلامي الفتي منها الويلات، ومرت عليه أوقات عصيبة أصبح فيها الحليم حيران. وأوضح دليل على ذلك أنهم لم يكفروا الخوارج على الرغم من كل المنكرات التي اقترفوها، حيث اتفقوا على قتالهم ولم يكفروهم[1] باعتبارهم الفئة الباغية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾[2]، ولم يقاتلوهم حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين، فقاتلوهم لرفع بغيهم وظلمهم لا لأنهم كفار، ولهذا لم تُسْبَ حريمهم، ولم تُغْنَم أموالهم[3]، وعندما سئل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– عن الخوارج أكفار هم ؟ قال: من الكفر فروا، فسئل: أمنافقون هم ؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا وأولئك يذكرون الله صباح مساء، وإنما هم إخواننا بغوا علينا "[4].

وتسلم الراية من بعدهم التابعون وتابعوهم ثم علماء المسلمين عبر القرون الذين عكفوا على هذا الموضوع الشائك فقتلوه بحثا، وجمعوا له الأدلة ووضعوا له القواعد واستنبطوا له الأحكام وبذلوا الوسع في التوفيق بين

(١) منهاج السنة النبوية في نقد الشيعة القدرية. أحمد بن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ط ١. ١٤٠٦ هـ. ج ٥. ص ٢٤٨.

(٢) الحجرات، ٩.

(٣) الروضة الندية شرح الواسطية. زيد بن عبد العزيز الفياض. دار الوطن. الرياض. ١٤٠٤ هـ. ص ٣٩٢.

(٤) أخرجه البيهقي في السنة. ج ٨. ص ٧٣. راجع – أيضاً –: الجامع لأحكام القرآن. أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط ١. ١٤٠٨ هـ. ج١٦. ص ٣٢٤.

النصوص، وأحاطوه بسياج منيع يحمي المجتمع والأمة من هذه الآفة ويقيها شرورها وتبعاتها، وضيقوا دائرته حتى لم يدعوا في ذلك زيادة لمستزيد لكي يكون المسلمون على بينة من أمرهم إذا ما عرضت لهم هذه الفتنة، فقال الإمام أبو حامد الغزالي: " ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلا، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمدا رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دمِ مسلمٍ "[1]، وجاء في الخلاصة من كتب الحنفية: " إذا كان في المسألة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنعه فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير تحسينا للظن بالمسلم"[2]، وروى ابن عساكر عن أبي سفيان قال: أتينا جابر بن عبد الله وكان مجاورا بمكة وكان نازلا في بني فهر فسأله رجل فقال: أكنتم تقولون لأحد من أهل القبلة: كافر؟ قال: لا. قلت: فمشرك؟ قال: معاذ الله، وفزع لذلك، فقال ابن عساكر معلقا على ذلك بعد أن ساق النصوص في خطورة التكفير: " فهذه الأخبار تمنع من تكفير المسلمين، فمن أقدم على التكفير فقد عصى سيد المرسلين "[3].

وقد عايشوا الفرق الضالة والمذاهب المتطرفة والغلاة من كل صنف وجنس، فدفعوا شبهاتهم بالعلم الصحيح والدليل الواضح. وعندما بالغ خصومهم في شرح مبادئهم وأفكارهم حتى أفضوا في كثير منها إلى الكفر الصريح لم يجرؤوا على إخراجهم من الملة، وتورعوا عن تكفيرهم بأعيانهم

(١) الاقتصاد في الاعتقاد. أبو حامد الغزالي.دار الكتب العلمية. بيروت. ط ١. ١٤٠٣ هـ. ص ١٥٧.
(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق. ابن نجيم الحنفي. دار الكتاب الإسلامي. ط ٢. ج ٥. ص ١٣٤.
(٣) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري. علي بن الحسين بن عساكر الدمشقي. دار الكتاب العربي. بيروت. ط٣. ١٤٠٤ هـ. ص ٤٠٥.

ولم يسموا أشخاصا لكنهم بينوا للناس وجه الخطأ والخطر في أقوالهم. ومن أمثلة ذلك أن علماء الأمة أجمعوا على كفر القول بخلق القرآن[1]، لكنهم لم يقولوا بكفر معين ممن شارك في فتنة خلق القرآن، يقول ابن تيمية: " كان الإمام أحمد يكفِّر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته، لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول ﷺ ظاهرة بينة... لكن ما كان يكفر أعيانهم... ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية، ويدعون الناس إلى ذلك ويعاقبونهم، ويكفرون من لم يجبهم، ومع هذا فالإمام أحمد ترحم عليهم، واستغفر لهم، لعلمه بأنه لم يتبين له أنهم مكذبون للرسول، ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطأوا، وقلدوا من قال لهم ذلك"[2].

وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها الفقهاء والعلماء المصلحون على مر العصور لوأد هذا المولود الفاسد إلا أنه ظل يطل برأسه بين الفينة والأخرى فيعيث أصحابه في الأرض فسادا ويهلكون الحرث والنسل وبخاصة في أوقات الفتن والاضطرابات والفرقة. ثم عاد فاستيقظ في عصرنا الحالي، وظهرت في ستينيات القرن الماضي جماعات تتبنى الفكر التكفيري وتدعو إلى اعتزال المجتمعات الإسلامية ومقاطعتها وتكفير الحكام والشعوب، ثم ما لبثت أن تحولت من المقاطعة إلى التمرد المسلح الذي يرمي إلى تقويض أنظمة الحكم القائمة وإقامة دولة الخلافة وتطبيق الشريعة الإسلامية بقوة الحديد والنار، واستحلت في سبيل هذه الغاية دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، ونشرت الفوضى والبلبلة بين الناس، واستقطبت كثيرا من الشباب المتدين المتحمس الذي كان متذمرا من الأوضاع المتردية التي تعيشها الأمة، وناقما على تخلفها

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول. حافظ بن أحمد الحكمي. ضبط نصه وعلق عليه: عمر محمود أبو عمر. دار ابن القيم. ط ٢. ١٤١٤ هـ. ج ١. ص ٢٦٩.

(٢) مجموع الفتاوى. أحمد بن تيمية. ج ٢٣. ص ٣٤٩.

وخضوعها لقوى الاستكبار العالمية، ومنزعجا أشد الانزعاج من تمكن التيارات العلمانية والملحدة من أَزمَّة الأمور وسعيها الحثيث لنشر الفساد والانحلال في بلاد المسلمين، ومحاربتها الشرسة لمظاهر التدين والتمسك بالإسلام ووصمها بالرجعية والظلامية.

وقد استشرى أمر هذه الجماعات وعظم خطرها وامتدت رقعتها وكثرت مفاسدها، وأضحت هذه الظاهرة بحاجة ماسة إلى من يعكف عليها من العلماء والعقلاء والباحثين ليستجلوا مظاهرها ويضعوا لها الحلول المناسبة قبل أن تقوض أركان المجتمعات الإسلامية وتتركها حمى مستباحا لقوى الشر المتربصة بها.

ثالثاً: مخاطر التكفير على الفرد والمجتمع:

إن موجة التكفير التي اجتاحت كثيرا من البلدان الإسلامية في عصرنا الحالي باعتبارها عقيدة يؤمن بها أصحابها ومذهبا فكريا يتبنونه ويصدرون عنه في أقوالهم وأفعالهم لها مخاطرها الكبيرة على الفرد والمجتمع. ذلك أن هذا التوجه الذي سيطر على أصحابه وتمكن من عقولهم وقلوبهم قد تحول فعلا إلى سلوك عملي، لأن سلوك الإنسان – كما هو معروف – هو في الأخير محصلة طبيعية للأفكار والتصورات التي يختزنها عقله، والاعتقادات التي يؤمن بها قلبه، وهنا مكمن الخطر وبداية الانحدار نحو الهاوية؛ لأن الحكم بالكفر على الأفراد والجماعات يترتب عليه جملة من المواقف السلوكية والإجراءات العملية التي تحدد العلاقات بين الطرفين، وترسم أشكال التعامل بينهما.

وعليه فإن من أولى المخاطر التي تنتج عن دعوة التكفير هو تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية، سواء على مستوى الأسرة أم على مستوى المجتمع. فدعاة التكفير الذين يتهمون الأفراد والمجتمعات بالخروج من الملة والمروق من الدين إنما يخرجونهم من حظيرة الإسلام ويحكمون عليهم بالردة. وهذا الحكم

الخطير له آثاره البعيدة على جميع المستويات. فقد قرر الفقهاء أن المرتد تنتفي ولايته العامة على المسلمين، وتنتفي ولايته على ذريته، وتحرم زوجته عليه ويفرق بينهما، ويسقط إرثه، ولا تحل ذبيحته، ولا يجوز تغسيله، ولا الصلاة عليه إذا مات، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يجوز الاستغفار له[1]، وما إلى ذلك، وهي كلها إجراءات مؤسسة على نبذ المرتد وفصله فصلا تاما عن أهله وأسرته ومجتمعه والحكم عليه بالنفي المادي والمعنوي، واستحلال دمه بعد استتابته وإقامة الحجة عليه.

ومعنى ذلك أن كل من وقعت عليه تهمة التكفير يفقد جميع ما يوجبه له الإسلام من الأخوة والمودة والصلة والبر والتعاون والتضامن والتناصر والنصح والدعوة إلى الخير، فتسقط هذه الواجبات جميعا بسقوط دعوى الإسلام حتى ولو كان أبا أو أما أو إخوة أو أقارب وما إليها، وتخلفها العداوة والبغضاء والقطيعة والتربص به والكيد له للإيقاع به.

وهذا الاعتقاد يجعل الجماعات التكفيرية تشعر بأن جميع ما يربطها بأفراد المجتمع الذين كفروهم قد انبتت حباله، ويجعل الإحساس بالانتماء إليهم يضمر في نفوسهم ويتراجع شيئا فشيئا، وتخلفه مشاعر الحقد والعداء والضغينة الأمر الذي يسهل عليهم استهداف الأبرياء في أرواحهم وأموالهم وأعراضهم بدعوى تطهير الأرض من الكفار وإقامة شرع الله: " وحين لا يشعر المرء بالانتماء إلى مجتمعه وأسرته ومحيطه سيبحث عن انتماء بديل، ولن يجد عسرا أن يتخلى عن أهله ويضع يده في يد أي قوة تستهدف الإطاحة والتدمير"[2].

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف. يوسف القرضاوي. كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر. ط ٣. شوال ١٤٠٢. ص ٥٥.

(٢) أسباب وجود ظاهرة العنف والإرهاب في أوساط الشباب المسلم وحلولها. سلمان بن فهد العودة. محاضرة ضمن فعاليات مؤتمر الإرهاب بين تطرف الفكر وفكر التطرف. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. ١٤٣٠ هـ. ٢٠٠٩ م. المحور الأول. القسم الأول. ص ٣٠٧.

وفي المقابل فإن المجتمع يحس بتمايز دعاة التكفير عنه ومحاولاتهم المتكررة للتنصل منه، ومشاعرهم العدوانية تجاه أفراده، فيتحولون – في نظره– إلى عناصر غريبة لا تنسجم مع نظامه العام، ولا تتجاوب مع توجهاته وتطلعاته، فتطفو إلى السطح بوادر مقاومة هذا الفكر المتشدد والسلوك العنيف الذي لا يستقيم مع الفطرة السليمة وطبيعة الحياة كرد فعل على مظاهر الغلو والتطرف لديه.

وليس هناك أخطر على الأسرة والمجتمع من أن يتبرأ منهما أبناؤهما ويقطعون صلتهم بهما، ويشكلون تجمعا معاديا يتحين الفرص لتوجيه الضربات العنيفة لهما بقصد تحطيمهما وتدمير بنيتهما وتفجيرهما من الداخل، إذ إنَّ ذلك بمثابة الحكم عليهما بالفناء. وقد قرن الله تعالى في كتابه الكريم بين قطع الأرحام والإفساد في الأرض فقال عز وجل: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾[1].

وهذا الانفصال عن المجتمع وقطع العلائق به هو ما تسميه جماعات التكفير "المفاصلة الشعورية ". وهو مصطلح يطلقونه على المرحلة الأولى من مراحل دعوتهم، وخلال هذه المرحلة يجتهدون في جمع الأنصار في سرية تامة ويتعاملون مع الناس معاملة عادية مع الاعتقاد في دواخلهم أنهم كفار، حتى إنّهم كانوا لا يأمرون أهاليهم بمعروف ولا ينهونهم عن منكر مبررين ذلك بأن هؤلاء كفار وليس بعد الكفر ذنب[2]، ولم يفارقوا زوجاتهم على الرغم من اعتقادهم أنهن كافرات؛ لأنهم يعتقدون أنهم يعيشون أحداث المرحلة المكية التي لم يحرم الله فيها بعد الإمساك بعصم الكوافر[3]. ثم تأتي المرحلة الثانية

(١) محمد، ٢٢.

(٢) الحكم وقضية تكفير المسلم. سالم البهنساوي. دار البحوث العلمية للنشر. الكويت. ط ٣. ١٤٠٥ هـ. ص ٩٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦١.

وهي مرحلة الاستضعاف التي ينعزلون خلالها تماما عن المجتمع ويقاطعونه فيها مقاطعة تامة فلا يرتادون المدارس ولا الجامعات ولا المعاهد لتحقيق الأمية في الأمة كما نعتها رسول الله – ﷺ –: ﴿ إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ وَلا نَحْسُبُ ﴾[1]، ولا يتقلدون الوظائف الحكومية ويرون أن مزاولة أي عمل من الأعمال في المجتمع الجاهلي عبادة للطاغوت، ولا يرتادون المساجد ولا يقيمون الجمع، إلى أن تأتي المرحلة الأخيرة وهي مرحلة التمكين التي تنتهي بالإطاحة بالمجتمع الكافر والنظام الكافر وإقامة شرع الله بعد إعلان الجهاد والانتصار في المعركة[2].

ولا يخفى على أحد ما يمثله هذا التوجه الفكري المتشدد من خطر داهم على المجتمع ؛ لأنه يقوم على الحجر والإقصاء والتهميش، وهي ممارسات منحرفة لا تلد سوى التطرف المضاد، والانقسام والتشرذم الذي يفضي إلى تشظي المجتمع وتمزق لحمته، وتجعله يعيش على فوهة بركان لا تلبث أن تنسف وجوده وتحوله إلى عصابات تتناحر وتتقاتل.

إن أفراد المجتمع إذا ضاق بعضهم ببعض، ولم يستطيعوا أن يحتملوا وجود خلاف في الآراء والمشارب والأفكار بينهم، واعتقد كل واحد منهم أن الحق ملك يمينه وأوجب على الباقين أن يترسموا خطاه ويستهدوا بهديه ويلغوا عقولهم ويدعوه يفكر بدلا عنهم وإلا فإن مصيرهم النفي الفكري والتكفير والتبديع والتخوين، فإن الحريات تتقلص، وتبرز الأهواء وتعلن عن نفسها بقوة، وتظهر ضغائن النفوس وأحقاد الصدور فتنفث في المجتمع سموم الكراهية والبغض، وتمزق نسيج العلاقات الاجتماعية بتصنيف الناس إلى مؤمن تابع مطيع، وكافر مغضوب عليه، ثم تمهد شيئا فشيئا لثقافة الصراع

(١) صحيح البخاري. كتاب الصوم. باب قول النبي لانكتب ولا نحسب. رقم ١٧٨٠.

(٢) الحكم وقضية تكفير المسلم. سالم البهنساوي. ص ١٦.

التي تأتي على الأخضر واليابس وتسلم المجتمع لحالة مزرية من الفوضى والفتن والقلاقل.

ومن مخاطر التكفير على الفرد والمجتمع – أيضا – اختلال المعايير الفكرية والأخلاقية بما ينشره دعاة التكفير من أفكار وآراء تصطدم اصطداما عنيفا مع المعتقدات السائدة في المجتمع، والآراء التي درج عليها الناس والمبنية في أساسها على الوسطية والاعتدال والتيسير وحسن الخلق وتوقير الصحابة واحترام العلماء والرفق بالعاصي حتى يتوب وبالجاهل حتى يتعلم، وتعظيم الحرمات من دماء وأعراض وأموال. فقد قلبت دعاوى التكفير جميع الموازين، وشوشت الأذهان وأدخلت الشك والريبة في النفوس في كثير من المسلمات والبديهيات، وأثارت الشبهات حول ما كان حقا ويقينا، وبلبلت العقول، واستهوت – بصفة خاصة – فئات الشباب التي تبحث عن التغيير وتحب المغامرة وتجنح إلى التمرد على الواقع بكل أشكاله، فتبنى هؤلاء الأغرار هذا الفكر القديم الجديد وواجهوا به أهاليهم ومحيطهم، وحاولوا فرضه على الناس على أنه الحق وكل ما عداه ضلال مبين، فدخل المجتمع في حالة من التوتر والشد والجذب كهربت الأجواء، وجرأت بعض الفئات على الخوض في المسائل الدينية بغير علم، والإفتاء بغير فقه، والإساءة إلى رموز الأمة الذين ظلوا يتمتعون طوال قرون بما يستحقونه من الإجلال والاحترام، وأدخلت جموعا غفيرة من العامة في متاهات الحيرة والارتباك لاختلاط السبل عليها، وعدم قدرتها على التمييز بين ما هو حق وما هو باطل وسط هذه الفوضى.

أما الخطر الثالث الذي يتربص بالفرد والمجتمع من جراء دعوة التكفير فهو انفجار أعمال العنف، واستهداف الناس في أرواحهم وأموالهم وأعراضهم بدعوى أنهم كفار وحماهم مستباح، وأن قتلهم قربة إلى الله وسبيل مضمون

للفوز بالجنة، فينجم عن ذلك اهتزاز الاستقرار وافتقاد الأمن، واضطراب الأحوال وانتشار الخوف وتعطل المصالح، وتوقف المشروعات، وتعثر مسيرة التنمية، وهروب رؤوس الأموال من البلاد، وتوجيه النفقات جميعا نحو وقف موجة العنف، وحماية المواطنين والمنشآت الوطنية من التخريب والتدمير، وهي مقدمات تمهد لتسلل الوهن إلى الدولة، وطمع أعدائها فيها باستغلالهم لجميع الثغرات التي فتحها الاختلال الأمني فيها لتحقيق أهدافهم والتمكين لنفوذهم فيها.

إن كثيرا من الشباب الذين استهوتهم موجة التكفير فركبوها لم يقدروا المخاطر الناجمة عنها، واعتقدوا أن الواجب يحتم عليهم التصدي لمظاهر البعد عن شريعة الله والانسلاخ من قيم الدين والمجاهرة بالمعاصي وانتشار المنكرات ومحاربتها للتمكين لدين الله في الأرض وإقامة شرعه بين الناس، غير أنهم – لصغر سنهم وقلة حصيلتهم من العلم الصحيح وغياب المرشد الذي يوجههم – أخطأوا الطريق وتاهوا عن منهج التغيير الرباني، وظنوا أن تكفير المسلمين والتبرؤ من الانتماء إليهم وسلوك سبيل القوة وسفك الدماء وتفجير المنشآت وترويع الآمنين ونشر البلبلة في المجتمع هو الكفيل بتحقيق الأهداف والوصول إلى الغايات، وغفلوا غفلة تامة عما يمكن أن يتمخض عن ذلك من آثار كارثية في جميع الأصعدة.

فبالإضافة إلى ما يصيب المجتمع من التمزق والتشظي، وما يحصل بين أفراده من الفرقة والقطيعة، وما تتحمله الدولة من الأعباء والنفقات الباهظة التي تؤخذ من أموال المواطنين، وما يفقده المجتمع من أبنائه الشباب الذين كان يعدهم للمستقبل ويراهن عليهم في إحداث النهضة فإذا بهم يتحولون إلى فلول هاربة تتعقبهم قوى الأمن لقتلهم أو اعتقالهم، هناك الخطر الخارجي الذي يسعى جاهدا لاستغلال هذه الطاقات الشابة. فقد ثبت بما لا يدع مجالا

للشك أن هناك جهات مشبوهة استخدمت أياديها الخفية لتوظيف دعاة التكفير لصالحها وتحقيق مكاسب هامة من وراء تشجيعها ومدها بالمال والسلاح، وهي تأمل أن تضرب من خلال ذلك عدة عصافير بحجر واحد.

ولعل أبرز ما تهدف إليه من وراء ذلك هو إثارة القلاقل والفتن والاضطرابات الأمنية وبوادر الحرب الأهلية في كثير من البلدان العربية والإسلامية لتدمير بناها التحتية وعرقلة مسيرتها التنموية وتبديد طاقتها الإنتاجية في محاولات إعادة الأمن للبلاد، حتى تبقى ضعيفة متخلفة تستجدي طعامها وكساءها ودواءها من القوى العالمية، وتفتقر إليها في سلاحها وأمنها واستقرارها. ويأتي بعد ذلك إتاحة الفرصة لها للتشهير بالإسلام في وسائل الإعلام العالمية ووصمه بالإرهاب والعنف والتطرف لتبرير محاربته والتضييق على أصحابه في كل مكان، وكبح مسيرة الصحوة المباركة التي باتت تهدد بتياراتها الهادرة قوى الطغيان في العالم، ناهيك عن المكاسب الكثيرة الأخرى التي ستجنيها من موجة التكفير التي ابتلي بها المسلمون، " إن الغلو في الدين في العصر الحديث شوه الدين الإسلامي الحنيف، ونفر الناس منه،وفتح الأبواب للطعن فيه، فتجرأ أناس على أفعال وأقوال لم يكونوا ليجرؤوا عليها لولا وجود الغلو والغلاة "[1].

رابعاً: العوامل الفكرية ودورها في صياغة العقل التكفيري:

من المسلم به منطقيا أن العقل التكفيري لم يأت من فراغ ولم يظهر إلى الوجود بالصدفة، بل هو محصلة جملة من العوامل التي هيأت المناخ لوجوده وساعدت على ظهوره وانتشاره، وهي عوامل متداخلة ومتشابكة فيها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتربوي والنفسي وغيره. غير أننا

(١) مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر. عبد الرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ٢. ١٤٢٣ هـ. ص ١٢٠.

سنركز في بحثنا هذا على العوامل الفكرية لاعتقادنا أن لها دورا أساسيا ومركزيا في ظهور العقل التكفيري وتشكيله. فالفكر هو الذي يصنع شخصية الإنسان ويحدد تصوراته ويصوغ مواقفه ويرسم سلوكه الخارجي الذي يعد مرآة عاكسة لما يدور في عقله، " إن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها فكره وعقيدته، فالإنسان مقود أبدا بفكرة: صحيحة أو فاسدة"[1]، وعليه فإن الأشخاص الذين يتبنون الفكر التكفيري ويصدرون عنه لا بد أن يكونوا قد تشبعوا بمفاهيمه واقتنعوا بأفكاره وآمنوا بصدقها وصحتها حتى تحولت في أعماقهم إلى عقيدة راسخة لا تتزعزع.

ويمكن رصد مجموعة من هذه العوامل فيما يلي:

١ – الجهل بالدين وقلة الفقه فيه وضعف الحصيلة من العلم الشرعي، وقد اتفق العقلاء على أن الجهل بالدين رأس كل خطيئة ومنبع كل شر، وأنه سبب هام لعدم التوفيق للحق والاهتداء للصواب. والجاهل بالدين يسعى إلى الإصلاح فينتهج طرقا يحسبها مستقيمة فيسيء من حيث أراد الإصلاح فينتج عن ذلك مفاسد شتى، لذلك كان الجهل دائما مقرونا بالظلم. والقائلون بتكفير المسلمين زادهم من العلم الشرعي قليل، وحظهم من الفقه والفهم يسير، وإلمامهم بكليات الشريعة ومقاصدها لا نكاد نجد له أثرا عندهم، وهذا أمر واضح بجلاء في مقولاتهم وفتاواهم ومواقفهم التي لا تلتقي مع ما أثر عن أعلام العلماء الذين غاصوا بذكائهم وبصائرهم الثاقبة في أعماق النصوص واستهدوا فيها بمآثر السلف فأوضحوا للأمة المنهاج الصحيح وأضاؤوا لها الصراط المستقيم،

(١) الدين، محمد عبد الله دراز. دار القلم – الكويت ١٤٠٠هـ. ص ٩٩.

وقد تبين للدارسين والباحثين أن أغلب دعاة التكفير من ذوي المستويات الدراسية المتدنية، وإن كانوا قد حصلوا قسطا من العلم وأحرزوا الشهادات الجامعية فهم بعيدون كل البعد عن التخصص الذي يخول لهم القول في دين الله والإفتاء في أحكامه ونوازله.

ولو كان لديهم زاد صحيح من علوم الشريعة لانتبهوا إلى كثرة النصوص المحذرة من التكفير وما تضمنته من الوعيد الشديد والزجر العظيم عن تكفير من لا تتحقق فيه الشروط المطلوبة، وإلى النصوص الناهية عن سفك الدماء والإفساد في الأرض وترويع الآمنين، ولما ضربوا نصوص القرآن ببعضها بعضا حين كفروا الناس بالكبائر وحكموا عليهم بالخلود في النار وجعلوا الذنوب كلها في مرتبة واحدة مخالفين بذلك نص القرآن والسنة وإجماع السلف، فالإيمان عندهم شيء واحد لا يتجزأ ولا يتبعض، فإذا ذهب بعضه ذهب كله: "إن المعاصي كلها شرك وكفر، ولا بد من المبادرة منها بالعودة إلى الإسلام، فمن عصى في شيء ولم يتب فهو كافر حلال الدم والمال، أيا كانت معصيته"[1].

وهذا جهل فاضح بنصوص القرآن والسنة التي تتراوح في مخاطبة العصاة بأساليب الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى ليعودوا إلى رحاب الله تائبين نادمين ولم توقع عليهم تهمة الكفر، وهو – من جهة أخرى – جهل واضح بطبيعة النفس الإنسانية التي ركبها الله – عز وجل – من قبضة الطين ونفخة الروح، والتي تعتورها الأنوار الربانية تارة والشهوات الجارفة تارة أخرى. وقد خاطب الله نفوس المؤمنين الذين غلبتهم شهواتهم في لحظة ضعف خطابا رقيقا مفعما بمشاعر الرفق والرحمة والحنان فقال:

(١) شبهات التكفيريين. عمر بن عبد العزيز قريشي. مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث. ط ١. ١٤١١ هـ. ص ١٥٣.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[1]، وقال – عليه الصلاة والسلام – مطمئنا المؤمنين الذين تزل أقدامهم بين الفينة والأخرى فيقعون في الذنوب: (كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)[2]، بينما ذهب دعاة التكفير إلى أن الناس صنفان لا ثالث لهما إما مؤمن خالص يجتنب جميع المعاصي والذنوب ويقوم بجميع الفرائض، أو كافر فاسق خارج عن الملة، وليس في عالم العقيدة إلا إيمان خالص أو كفر خالص وليس بين هذه الثنائية درجات ولا دركات، وقياسا على هذه النظرة القاصرة فإن الناس مطالبون بأن يكونوا ملائكة أبرارا وإلا لحقتهم تهمة الكفر: " فالغيبة معصية، والنميمة معصية، والحسد معصية، والهمز واللمز والتنابز بالألقاب وأمثالها كثير. فهل كل من يفعل ذلك يكفر ؟ إذا قلنا بهذا فلا يبقى مسلم على وجه الأرض، حتى ولا من هؤلاء الشباب ولا من غيرهم "[3].

ولو ألقى هؤلاء نظرة سريعة إلى المصادر العلمية التي تركها علماؤنا الثقات لوجدوا فيها جوابا شافيا لكل هذه الشبهات، ولأدركوا أن هؤلاء الأعلام قد عكفوا على نصوص الكتاب والسنة يستقرؤونهما حرفا حرفاً ونصاً ونصاً، ويكدون أذهانهم ليتوصلوا إلى مراد الله ومراد رسوله، موفقين بين النصوص التي يبدو في ظاهرها التعارض والتناقض؛ لأنهم يؤمنون إيمانا جازما أن كل ما وصلهم من الوحي المعصوم يكمل بعضه بعضا ويبين بعضه بعضا.

(١) الزمر، ٥٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده. ج ٣. ص ١٩٨، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٤٣٩١.

(٣) التكفير: جذوره، أسبابه، مبرراته. نعمان السامرائي. دار المنارة. جدة. ط ١. ١٤٠٤ هـ. ص ٥٨ – ٥٩.

ومن خلال هذه الجهود العظيمة قرروا أن الأصل في المعاصي والذنوب عدم الكفر، واستدلوا لذلك بأدلة دامغة منها أن الله – تعالى – أمر بإقامة الحدود على القاتل والزاني والسارق وشارب الخمر وغيره من أصحاب الذنوب، كل بقدره، وهي شهادة لهؤلاء المذنبين بالإسلام، ولو كان الزاني قد خرج من الإسلام بزناه والسارق بسرقته وشارب الخمر بشربه لقتل حداً على كل حال. ومنها أن رسول الله – ﷺ – لعن شارب الخمر كما في الحديث الشريف عن عبد الله بْنَ عُمَرَ أن رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – قال: ﴿ لُعِنَتْ الْخَمْرُ عَلَى عَشْرَةِ أَوْجُهٍ بِعَيْنِهَا وَعَاصِرِهَا وَمُعْتَصِرِهَا وَبَائِعِهَا وَمُبْتَاعِهَا وَحَامِلِهَا وَالْمَحْمُولَةِ إِلَيْهِ وَآكِلِ ثَمَنِهَا وَشَارِبِهَا وَسَاقِيهَا ﴾ ، غير أنه عندما أقام الحد على من شربها ولعنه أحد أصحابه قائلا: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ، نهاه عليه الصلاة والسلام عن لعنه وقال:﴿ لا تَلْعَنُوهُ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[1]، يقول ابن تيمية معلقا على هذا الحديث الشريف: " فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب، لكونه يحب الله ورسوله، مع أنه لعن في الخمر عشرة... ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين، الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة به"[2]. مما يؤكد أن الوقوع في المعاصي والذنوب لا يخرج المسلم من حظيرة الإسلام، "إن الذي عندنا في هذا الباب كله أن المعاصي والذنوب لا تزيل إيماناً، ولا توجب كفراً، ولكنها إنما تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه الذي نعت الله به أهله واشترطه عليهم"[3].

(١) صحيح البخاري. كتاب الحدود. باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة. رقم ٦٢٨٢.

(٢) مجموع الفتاوى. أحمد بن تيمية. ج ١٠. ص ٣٣٠.

(٣) الإيمان. معالمه وسننه واستكماله ودرجاته. أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، ط٢. ١٤٠٣هـ. ص ٤٠.

ومما يدلل على صحة هذا الفهم أن الله شرع الرجم للزاني المحصن والجلد للزاني غير المحصن وللسارق وشارب الخمر وقاذف المحصنات وغيرهم، ولو كانوا كفاراً لكان حكمهم الاستتابة ثم القتل، وثبت صفة الإسلام وحق الأخوة الإسلامية للقاتل فقال – عز وجل – في القصاص: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾[1]، ومعنى هذا كله كما قال المروزي: " أن من فعل تلك الأفعال لا يكون مؤمناً مستكمل الإيمان؛ لأنه قد ترك بعض الإيمان، نفى عنه الإيمان، يريد به الإيمان الكامل.. وإقامة الحدود عليه دليل على أن الإيمان لم يَزُلْ كله عنه، ولا اسمه، ولولا ذلك لوجب استتابته، وقتله، وسقطت عنه الحدود"[2].

وخلصوا إلى أن النصوص وإن كانت رفعت اسم الإيمان عن بعض العصاة فإنها عاملتهم معاملة المؤمنين، وحين أقامت عليهم الحدود حكمت بإسلامهم، ولم تسقط عنهم حقاً من حقوق الإسلام، فدل ذلك على أن المنفي هو كمال الإيمان، لا أصله وحقيقته[3].

وبذلك يكون الجهل بدلالة لفظ الكفر في الشرع هو الذي أوقع هؤلاء الغلاة في تكفير المسلمين: "وجمع النصوص إلى بعضها كفيل برفع شبهة المكفِّرين لكل من أطلق عليه الشرع كلمة الكفر، إذ المفهوم الخاطئ لهذا الإطلاق يجعل نصوص الشرع متعارضة متناقضة، والحق أن النصوص الشرعية يصدق بعضها بعضاً، والواجب جمع النصوص بعضها

(١) البقرة، ١٧٨.

(٢) تعظيم قدر الصلاة. محمد بن نصر المروزي. تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي. مكتبة الدار. المدينة المنورة. ط ١. ١٤٠٦ هـ. ج٢. ص ٥٧٦.

(٣) التكفير وضوابطه. منقذ بن محمود السقار. ص ٢٩.

إلى بعض، وإعمالها جميعاً بمزيد من التبصر في دلالات ألفاظها ومآلات عباراتها"[1]، لذلك قال علماؤنا قديما إنّ " المبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل"[2].

٢ – القراءة الحرفية الظاهرية للنصوص دون التعمق في مقاصدها ومغازيها وأهدافها البعيدة، والاكتفاء بما يدل عليه ظاهر النص، وترتيب الأحكام على هذا الفهم القاصر، والتغافل عن إعمال القواعد الضرورية في الاستدلال، وعدم الجمع بين الأدلة، وعدم رد المتشابه إلى المحكم، وعدم الاعتداد بفقه السلف، ولا بفتاوى العلماء المعتبرين.

وقد سبق الخوارج التكفيريين المعاصرين إلى ذلك حينما اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يستنبطوا الأحكام من النصوص القرآنية دون الرجوع إلى مصادر العلم التي تعين على ذلك فوقعوا في أخطاء فاحشة، وارتكبوا جرما عظيما حينما أخذوا بظواهر النصوص وأعرضوا عن فهوم الصحابة والتابعين، ولم يضعوا اعتبارا لقواعد الاستدلال ولا للجمع بين الأدلة ولم ينظروا في أعذار الناس لذلك قال عبد الله بن عمر: " إِنَّهُمْ انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ فَجَعَلُوهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"[3].

ومن أمثلة ذلك أنهم استدلوا على كفر العاصي بقوله – تعالى –: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾[4]، وعلى كفر المصر على المعصية بقوله – تعالى –: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ

(١) المرجع نفسه. ص ٣٧.

(٢) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية. أحمد بن تيمية. تحقيق: موسى سليمان الدويش. مكتبة العلوم والحكم. ط ١. ١٤٠٨ هـ. ج١. ص ٣٤٥.

(٣) صحيح البخاري. كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم. باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم.

(٤) الجن، ٢٣.

الظَّالِمُونَ ﴾[1]، وقوله – عز وجل –: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾[2] فنتج من جمع هذين النصين أن من لم يتب فهو كافر. وجاء في كتب التاريخ أن أحد العلماء وقع مرة في أيدي الخوارج فسألوه عن هويته فقال: مشرك مستجير يريد أن يسمع كلام الله. فقالوا له: حق علينا أن نجيرك ونبلغك مأمنك وتلوا قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[3]، فنجا منهم بهذه الكلمات، ولو قال لهم مسلم لقطعوا رأسه[4] كما فعلوا بالصحابي الجليل أبي الدرداء الذي ذبحوه وبقروا بطن زوجته الحامل عندما أخبرهم أنه صاحب رسول الله ﷺ.

وفي عصرنا هذا سلكت الجماعات التكفيرية السلوك ذاته حينما تناولت النصوص المعصومة كما هي واقتطعتها من سياقها وطبقتها رأسا على الواقع فوقعت بدورها فيما وقع فيه السابقون، واستصدرت أحكاما غاية في الخطورة والتطرف. منها تكفيرهم للعاصي المصر على معصيته استنادا إلى قوله – تعالى –: ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[5]، ومنها – أيضاً – تكفيرهم للحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله بإطلاق ودون تفصيل استنادا إلى قوله – تعالى –: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴾[6]، ورتبوا على هذا الحكم أحكاما في غاية الخطورة

(١) الحجرات، ١١.
(٢) البقرة ٢٥٤.
(٣) التوبة، ٦.
(٤) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف. يوسف القرضاوي. ص ٥٤.
(٥) البقرة، ٨١.
(٦) المائدة، ٤٤.

والغرابة منها تكفير المحكومين من الشعوب أيضا بإطلاق ودون تفصيل؛ لأنهم رضوا بهم وتابعوهم على الحكم بغير ما أنزل الله، وتكفير علماء الدين وغيرهم؛ لأنهم لم يَكْفُرُوا بالحكام والمحكومين، ومن لم يُكَفّر الكافر فهو كافر، وتكفير كل من عرضوا عليه فكرهم، فلم يقبله ولم يدخل فيه، وتكفير كل من قَبلَ فكرهم ولم ينخرط في جماعتهم ويبايع إمامهم، ومن بايع إمامهم ودخل في جماعتهم، ثم تراءى له لسبب أو لآخر أن يتركها فهو مرتد حلال الدم، وكل الجماعات الأخرى إذا بلغتها دعوتهم ولم تحلّ نفسها لتبايع إمامهم فهي كافرة مرتدة.

ويشير الشيخ القرضاوي إلى تعنت الجماعات التكفيرية وإصرارها على الفهم الحرفي للنصوص في قضية تكفير الحكام ورفض كل حوار أو نقاش في قوله: " والذين لم يوافقوهم على هذا الفهم للنصوص التي استدلوا بها وقالوا إنها مؤولة عند أهل السنة والجماعة لاصطدامها بأدلة وقواعد أخرى أقوى منها وأظهر في الدلالة، هؤلاء الذين لم يوافقوهم اتهموهم – أيضا – بالكفر وقالوا: من لم يُكَفّرْ هؤلاء الحكام ومن والاهم فهو كافر، لأن الشك في كُفْر الكفار كفر، كمن شك في كفر اليهود والنصارى والمجوس وأمثالهم. ومن هنا بدأ نطاق التكفير يتسع، لا ليشمل من والى الحكام أو رضي بحكمهم بل من سكت عن تكفيرهم، وهذا يعم جمهور الناس "[1].

وقد أفاض العلماء في إيضاح الملابسات التي اكتنفت هذه الآية الكريمة؛ لأنها كانت سلاحا من أمضى أسلحة التكفيريين في القديم والحديث، وبها استحلوا الخروج على الحكام واستباحوا دماء من يعمل

(١) ظاهرة الغلو في التكفير. يوسف القرضاوي. مكتبة وهبة. القاهرة. ط ٣. ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م. ص ٦ – ٧.

لديهم من الجند والشرطة ورجال الأمن والإداريين ومن لم يعلن كفرهم جهارا من باقي أفراد المجتمع. واستندوا في تفنيد ما ذهب إليه دعاة التكفير على رأي عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – وجمع من الصحابة الكرام الذين قرروا أن الكفر الوارد في الآية الكريمة كفر أصغر وليس كفر أكبر مخرج من الملة. قال ابن عباس في تفسير الآية: " ليس بالكفر الذي يذهبون إليه "[1]. وقال طاووس: " ليس بكفر ينقل عن الملة "[2] وقال عطاء: " كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق"[3]، وعليه، فإنه لا يجوز لأحد من الناس أن يُكَفّر من حكم بغير ما أنزل الله بمجرد الفعل من دون أن يعلم أنه استحل ذلك في قلبه، واعتقد في قرارة نفسه أن حكم الله لا يصلح للعباد وأن شريعته لا تفي بحاجاتهم، ويجهر بذلك أمام الملأ عن إيمان ويقين: " إن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة، وقد يكون كفرا إما مجازيا وإما كفرا أصغر... وذلك بحسب حال الحاكم. فإن اعتقد بأن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر. وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص، ويسمى كافرا كفرا مجازيا أو كفرا أصغر، وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأ

(١) تفسير القرآن العظيم. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. دار الفكر. بيروت. ١٤٠٤هـ. ج ٣. ص ١٢٠.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. دار الفكر. بيروت.١٣٩٨ هـ. ١٩٧٨م. ج ٣. ص ٥٩٦.

(٣) المصدر نفسه. ج ٣. ص ٥٩٦.

فهذا مخطئ له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور"[1].

وبينوا – أيضاً – أن من الخطأ الجسيم الأخذ بعموم الآية ؛ لأن ذلك يستلزم " تكفير المسلمين في أي حادثةٍ لم يعدلوا فيها بين اثنين حتى الأب مع أبنائه، بل والرجل في نفسه إذا عصى ربه ؛ لأن واقعه أنه لما عصى ربه لم يحكم بما أنزل الله في نفسه. ووجه هذا اللازم أن لفظة (مَنْ) عامةٌ تشمل كل عالم، و(ما) عامة تشمل كل ما ليس بعالم. ومن لم يعدل بين بنيه داخلٌ في عموم (من) ومسألته التي لم يعدل فيها داخلةٌ في عموم (ما).فالنصوص الدالة على عدم كفر مثل هذا وكل عاصٍ تكون صارفةً للآية من الأكبر إلى الأصغر لأجل هذا أجمع العلماء على عدم الأخذ بعموم هذه الآية، إذ الخوارج هم المتمسكون بعمومها في تكفير أهل المعاصي والذنوب ولم يلتفتوا إلى الصوارف من الأدلة الأخرى".

ومن أمثلة قراءاتهم الحرفية لنصوص الكتاب الكريم استشهادهم بالآية القرآنية: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾[2]، وقالوا ليس هناك صنف ثالث، فإما أن يكون الإنسان مؤمنا أو كافرا وليس هناك كفر أصغر وآخر أكبر ولا يمكن أن يجتمع في قلب الإنسان إيمان وكفر مهما كانت درجة هذا الكفر، ولا إيمان ونفاق، بينما تثبت النصوص عكس ذلك، والأمثلة على هذه النصوصية الجامدة كثيرة، وهي دليل قوي على غفلتهم عن عظمة الرسالة الإسلامية وشموليتها وصلاحيتها المطلقة للبشرية في معاشها ومعادها، وقصورهم الواضح عن إدراك أسرارها ومقاصدها التي لا يفقهها إلا الراسخون في

(١) شرح العقيدة الطحاوية. ابن أبي العز الحنفي. تحقيق: ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. بيروت. ط ٢. ١٤١٤ هـ.ص ٣٦٣.

(٢) التغابن، ٢.

العلم، لأن:" تحقيق المناط في الأحكام أمر لا يحسنه كل أحد، وهو الميدان الذي يتمايز فيه العلماء عن الأدعياء، وهؤلاء الأصاغر يفتون في مسائل وقف عندها الأكابر من أهل العلم، وبها يتصدرون المجالس، وهم للأسف يكثرون في آخر الزمان، حيث تُرزأ بهم أمة الإسلام مصداقا لقول رسول الله – ﷺ –: ﴿ إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر ﴾[1]" [2].

٣ – التأويل الخاطئ لنصوص الدين: حتى تتوافق مع مقولاتهم ومذهبهم. فهم يقومون بإخراج النص عن الحقيقة التي وضع لها وأنزل من أجلها، ويبدلون معناه بمعنى من عندهم فتتغير المعاني ويتم بعد ذلك تأويل النصوص تأويلا فاسدا يخدم أهواءهم ويسند أدلتهم لدى العامة ويبرر مواقفهم وأعمالهم، ويضربون بعرض الحائط جميع الشروط والقواعد التي تعارف عليها العلماء قديما وحديثا، والتي أجمعوا على ضرورة توفرها حتى يتم تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واستنباط الأحكام وفق مراد الله – تعالى – حتى لا تجمح بالمتطفلين والجاهلين أهواءهم ويقولون على الله بغير علم.

إن دعاة التكفير ينفردون عن باقي المسلمين برفض كثير من الأحاديث النبوية الصحيحة، ورفض إجماع الصحابة والتابعين وعدم الاعتراف بإجماع علماء الأمة، والتصدي لتفسير كلام الله بما تملي عليهم أهواؤهم وما يتناسب مع معتقداتهم، لذلك جنحوا إلى لَيِّ أعناق النصوص التي لا تؤيد وجهة نظرهم، وبالغوا في تأويلها تأويلا بعيدا عن مراد

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط. رقم ٨١٤٠. واللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم ١٠٢. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٦٩٥.

(٢) التكفير وضوابطه. منقذ بن محمود السقار. ص ٢٢.

الشارع، ومجاف لمقاصد الشريعة.

ومن أمثلة ذلك أنهم ذهبوا إلى أن الله حكم على من يطيع أولياء الشيطان بالكفر فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[1]، ومن حكم بغير ما أنزل الله فقد أطاع الشيطان وأولياءه فهو مشرك كافر. وتأولوا حديث الرسول – ﷺ –: ﴿ إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ وَلا نَحْسُبُ ﴾[2]، فحرموا ارتياد المدارس والجامعات والمعاهد وحكموا على أنفسهم وأولادهم وأهاليهم بالأمية التامة إلا ما يتلقونه من علم في حلقاتهم الخاصة، وزعموا أن حملة محو الأمية دعوة يهودية لشغل الناس بعلوم الكفر عن تعلم الإسلام، قالوا بترك صلاة الجمعة والجماعة بالمساجد؛ لأن المساجد كلها ضرار وأئمتها كفار إلا أربعة مساجد: المسجد الحرام والمسجد النبوي وقباء والمسجد الأقصى ولا يصلون فيها أيضاً إلا إذا كان الإمام منهم[3].

٤ – الاقتداء بالمشيخة المنحرفة: لقد فقد كثير من الشباب المندفع الذي جرفه تيار التكفير ثقته في العلماء الذين اتهموهم بالعمالة ومداهنة الحكام والتملق إليهم، ورأوا أنهم متواطؤون مع الحكام وأعداء الإسلام على إبقاء الأمة ذليلة خاضعة، أو خائفون من قول الحق ومنخذلون ومستسلمون للواقع، أو ليسوا مؤهلين لحل مشاكل الأمة الإسلامية والنهوض بها، ولو كانوا على علم صحيح لجهروا بمعارضتهم لما يجري من استغلال لمقدرات الأمة واستنزاف لخيراتها، ونشر واسع للانحلال

(١) الأنعام، ١٢٠.

(٢) صحيح البخاري. كتاب الصوم. باب قول النبي لا نكتب ولا نحسب. رقم ١٧٨٠.

(٣) الغلو في التكفير: المظاهر، الأسباب، العلاج. أبو حسام الدين الطرفاوي. ص ١٣١.

والمنكرات. لذلك لجأوا إلى المشيخة المنحرفة التي يمثلها الغلاة المتعصبون الذين فقدوا الدليل الهادي وتطرفوا في فهم النصوص والأحكام، ومالوا في كل أمورهم إلى التشدد والغلو والإغراق في التحريم والتكفير، فوجد مذهبهم هوى في نفوس الشباب التي تفيض طاقة وحيوية وتفتقر إلى الصبر والحكمة، وتبحث عن منفذ تفرغ فيه هذا الفائض الذي يعتلج في دواخلهم فقادوهم في هذا الطريق المليء بالأشواك، وحشدوا لهم من الأسباب والذرائع ما يبررون به إزهاق الأرواح، وسلب الأموال، وترهيب الناس، وقلب أنظمة الحكم، وغلفوا هذه الدعاوى كلها بحجة الجهاد في سبيل الله فضلوا وأضلوا، وعاثوا في الأرض فسادا، وكان ما أحدثوه من المنكرات والفساد أكثر مما أصلحوا، بل إنهم لم يصلحوا شيئا إذ كان ديدنهم سفك الدماء التي هي من أعظم الحرمات، وكان حالهم كحال من أراد أن يبني قصرا فهدم مصرا.

وكثير من فتاوى هؤلاء الغلاة وأفكارهم مبنية على نظرة ضيقة جدا إلى الدين، ومؤسسة على رؤية منحرفة فيها كثير من الغموض والضبابية وميل واضح نحو التشدد والغلو في كل شيء بحيث تصادم الفطرة السليمة وتنفر النفوس السوية، مع عدم علم بشروط أهلية الاجتهاد. وقد أشار ابن حزم إلى عظم ضرر هؤلاء فقال: " لا آفة أضر على العلوم وأهلها من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون"[1].

وكل انحراف أو زيغ في طريقة تحصيل العلم أو التأدب بآدابه، أو أداء

(١) خلاف المفتين. الشريف حاتم بن عارف العوني. دار الصميعي. الرياض.ص ٤٩.

حقه وواجبه، إنما مرده إلى شيء من الغلو في طريقة من طرق العلم، تفقد نوره وبهاءه، وتذهب ببركته. يقول ابن مسعود: "لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم وعن أمنائهم وعلمائهم فإذا أخذوه عن صغارهم وشرارهم هلكوا"، قال ابن قتيبة في تفسير ذلك" :لا يزال الناس بخير ما كان علماؤهم المشايخ ولم يكن علماؤهم الأحداث؛ لأن الشيخ قد زالت عنه حدة الشباب ومتعته وعجلته، واستصحب التجربة في أموره فلا تدخل عليه في علمه الشبه ولا يستميله الهوى ولا يستزله الشيطان، والحَدَثُ قد تدخل عليه هذه الأمور التي أمنت على الشيخ، فإذا دخلت عليه، وأفتى هلك وأهلك "[1].

٥ – التمركز حول الذات وإقصاء الآخر: لقد دأبت جماعات التكفير على تسمية نفسها بجماعة المسلمين، وألزمت الناس بتقديم البيعة لأميرها على أنه إمام المسلمين، وعلى طاعته في المنشط والمكره، وسمت بلاد المسلمين التي لم يذعن أفرادها لهم بدار الحرب، وسمت الأماكن التي يأوي إليها أنصارها بدار الإسلام، وأخرجت جميع من لم يَتَبَنَّ مذهبها من دائرة الدين واستحلت دمه وماله وعرضه، ولم تترك لنفسها مساحة صغيرة تمكنها من الالتقاء بالآخرين أو محاورتهم لأنهم جميعا في نظرها كفارٌ يتعين البراءة منهم ونبذهم واستئصال شأفتهم متى أتيحت لها الفرصة وتوفرت لديها القوة اللازمة.

إن الاعتقاد الجازم للتكفيريين بأنهم وحدهم على الحق وأن الناس جميعا على الباطل جعلهم يتمركزون حول ذواتهم ويدورون حول أنفسهم ويحسبون أنهم مركز العالم وقطب الرحى ونقطة الجذب الرئيسية،

(١) نصيحة أهل الحديث. أحمد بن علي بن ثابت البغدادي. تحقيق: عبد الكريم أحمد الوريكات.مكتبة المنار. الزرقاء. الأردن. ط ١. ١٤٠٨ هـ.ص ٩٣.

ويتعين على ما سواهم من الأطراف أن يكونوا تابعين وإلا فإن مصيرهم الإقصاء ثم الإفناء: "فالمتطرف كأنما يقول لك: من حقي أن أتكلم، ومن واجبك أن تسمع. ومن حقي أن أقود ومن واجبك أن تتبع. رأيي صواب لا يحتمل الخطأ ورأيك خطأ لا يحتمل الصواب. وبهذا لا يمكن أن يلتقي بغيره أبدا، لأن اللقاء يمكن ويسهل في منتصف الطريق ووسطه، وهو لا يعرف الوسط ولا يعترف به"[1].

وهذه النظرة الأحادية المتطرفة مبنية في أساسها على تقديس الذات والانتصار لهوى النفس الذي يعمي بصيرة الإنسان فلا يرى حقا إلا ما وافق هواه، وتقييم الآخر والأشياء من خلال الأنا التي ترفض أن يكون للمختلف وجودا مستقلا عنها، أو أن يكون ندا لها، وإنما هو الاستتباع والطاعة أو النفي والإقصاء، وهذا من أخطر أسباب العتو والطغيان والإفساد في الأرض بسبب التمركز حول الذات وتجاهل العالم المحيط، وقد رأينا كيف قادت هذه الفكرة المتطرفة أصحابها إلى الإمعان في إزهاق الأرواح البريئة، وتبديد الأموال العامة والخاصة، وملء النفوس بالرعب والخوف، وارتكاب الجرائم الفظيعة التي تقشعر لها الأبدان، واستهداف أمن واستقرار بلاد المسلمين، وجعلها عرضة للفتن والقلاقل في سبيل أن تكون كلمتهم هي العليا، ومذهبهم في الفكر هو السائد، وجميع الخلق اتّباعا طائعون.

٦ – التعالم وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة: لقد أقنع دعاة التكفير أنفسهم أنهم الجماعة الوحيدة التي ظفرت بالحق وعثرت عليه واحتكرته لنفسها، فهي الجماعة الناجية وغيرها على ضلال، ومنهجهم في التفكير

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف. يوسف القرضاوي. ص ٤٠.

هو المنهج المثالي الذي تنطبق مقولاته مع الوحي المعصوم. وقد أدى تشبعهم بهذه الفكرة إلى التعالي على غيرهم واستصغارهم واحتقارهم والأنفة من محاورتهم أو مساجلتهم أو تبادل الآراء معهم: "فلا يجوز لأحد –مهما كانت منزلته وعلمه – أن يوجه لهم أي نقد، أو يقدم لهم أي نصح أو يخطئهم في أية مسألة ولو أدى بهم الأمر أن يكفروا المسلمين جميعا"[1].

كما قادهم هذا الاعتقاد المتعسف إلى إنكار حجية قول الصحابي وفعله ولو كان من الخلفاء الراشدين وقالوا في اعتداد وغرور هم رجال ونحن رجال فلماذا نسلم لهم بما قالوا ؟، وعدم الاعتداد بإجماع الأئمة حتى ولو كانوا من الصحابة، وعدم الاعتراف بالقياس أو بالمصلحة المرسلة أو بالاستحسان، والإعراض عن أقوال العلماء المحققين وأمهات كتب التفسير والعقائد؛ لأن كبار علماء الأمة في القديم والحديث مرتدون عن الإسلام، واعتبار الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة أوثانا منصوبة يعبدها اتّباعهم، وأعلن زعيمهم شكري مصطفى: أن جماعته قامت لتهدم الأصنام المعبودة من دون الله وأولها صنم الأئمة الأربعة المتبعين من دون الله، وزعموا أنهم بلغوا درجة الإمامة، والاجتهاد المطلق، وأن لهم أن يخالفوا الأمة كلها وما أجمعت عليه سلفاً وخلفاً[2].

ولم يعترفوا سوى بحجية القرآن الكريم والسنة النبوية، ويذهبون إلى أن القرآن الكريم واضح في نفسه لا يحتاج إلى تفسير ولا إلى توضيح، ومن ثم يمكن أن تؤخذ منه الأحكام ومن السنة النبوية مباشرة، دون الحاجة إلى كتب التفسير أو شرح الحديث النبوي الشريف وقالوا: من اعتقد أن كلام الله ورسوله يحتاج على شرح فقد كفر ؛ لأنه اعتقد أن كلام

(١) فريضة الحوار. عمر عبد الله كامل.ص ١٩٣.

(٢) الغلو في التكفير: المظاهر، الأسباب، العلاج. أبو حسام الدين الطرفاوي. ص ١٢٨ – ١٢٩.

البشر أبين وأوضح من كلام الله. ولما كان زادهم من العلم قليلاً خبطوا في هذا الميدان خبط عشواء، وسولت لهم أنفسهم أن ينتقوا الآيات والأحاديث التي تتناسب مع ما اعتقدوه ولا يلتفتون إلى غيرها، فوقعوا في خلط عظيم، وهذا ما يسميه الشاطبي اتّباع الهوى فيقول: "ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء ؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورًا فيها من وراء ذلك "[1]. إن الاعتقاد بأنهم ظفروا بالحق واحتكروه لأنفسهم، وأنهم وقفوا على الكمال في المنهج والفكر دون سائر الناس قد نفخ في نفوسهم حتى تورمت تورما مرضيا.

بينما كان سلف الأمة من الراسخين في العلم يتواضعون لطلب العلم ويوقرون شيوخهم ويتفتحون على جميع الآراء والمذاهب ثم يتميزون عنها بأسلوبهم الخاص في الاجتهاد والاستنباط عن علم وبصيرة، ولا يرون فيمن يخالفهم سوى وجها آخر من وجوه الحقيقة التي يختلف الناس في رؤيتها، "كان دأب السلف من العلماء وسنتهم أنهم يتناظرون في العلم ويختلفون في الاجتهاد، ويختط الواحد منهم لنفسه المنهج الذي يعتقده صوابا، ويرى أنه مطالب بأن يدين لله – تعالى – عليه، لكنه في الوقت نفسه يشيد بعلم مخالفه ولا يذكره إلا بكل إجلال وإكبا"[2].

٧ – اعتماد منطق الثنائية وحصر الخلاف بين الناس في نطاق ضيق جدا لا يحتمل أي خيار. فالجماعات التكفيرية تعتقد اعتقادا جازما أنها على

(١) الاعتصام. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي. تحقيق: سليم بن عيد الهلالي. دار ابن عفان. الخبر. السعودية. ط ١. ١٤١٢ هـ. ج ١. ص ١٧٢.

(٢) الغلو في الدين. الصادق الغرياني. دار السلام. القاهرة. ط ١. ٢٠٠١ م. ص ٢٩.

حق وأن كل من سواها على الباطل المحض، وعليه فلا مجال للالتقاء، فإما أن يتنازل الطرف الثاني عن موقفه ويتبنى أفكارهم، وإما أن يصنف نفسه في خانة الضالين الذين يستحقون النفي والإقصاء. فالناس جميعا صنفين إما معهم وإما ضدهم، وليس هناك طريق وسط يلتقي فيه الفرقاء المختلفون ليبحثوا عن صيغة تعايش وتساكن، لذلك كان الصراع مع المختلفين معهم وارد في تفكيرهم بقوة، فكلما أتيحت لهم الفرصة ووجدوا ثغرة مفتوحة ضربوا بقوة ووحشية لاعتقادهم بشرعية إلغائه ومحوه من الوجود، وأن تجرؤه على مخالفتهم كاف لحرمانه من الحياة أو استحلال عرضه وماله.

فالعقلية التكفيرية تبني أمرها على إنكار الاختلاف وإدانة المختلف، وتستنكر على الناس أن تكون لهم آراؤهم الخاصة وتوجهاتهم المتميزة، وتسلك في سبيل حرمانهم من حقهم الطبيعي في التعبير عن عقائدهم وآرائهم سبيل التهديد والوعيد والقوة والعنف، وهو سبيل خاطئ محفوف بالمخاطر والفتن، ونهايته مأساوية ومفجعة ؛ لأنها تبدأ صراعا داميا بين من يريد أن يفرض وصايته الدينية والفكرية على الآخر وبين من يدافع عن حقه في أن تكون له عقيدة يؤمن بها دون إكراه، وتوجه فكري يعتقد أنه يتماشى مع قناعاته العقلية، وتنتهي بهزيمة الاثنين معا وخسران المجتمع لأبنائه الذين أكلتهم نار الحقد، ولأمنه واستقراره، ورفاهيته وازدهاره.

إن الاختلاف واقع إنساني وسنة كونية تفرض على الناس أن يتكيفوا معها لتستقيم حياتهم وتسير سيرا طبيعيا بعيدا عن مظاهر الصراع المتوحش الذي يزرع الرعب والفوضى، ويملأ النفوس حقدا وغلا، والأرض دماء وأشلاء. و الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على الخلق، فراحوا

يُخَطِّئُون ويُصَوِّبُون، ويُزَكُّون ويُكَفِّرُون، وينشرون البلبلة الفكرية بين الناس، ويصادرون الآراء المخالفة، ويضيقون نطاق الحريات، ويحاولون أن يصبوا جميع العقول في قالب واحد، بحيث يكون الناس جميعا نسخا طبق الأصل لبعضهم بعضا يصادمون الفطرة السليمة ويناقضون طبيعة الحياة.

وهي الحقيقة التي أكدها القرآن الكريم حينما نص على أن الاختلاف سنة من سنن الله في الوجود، وحقيقة إنسانية طبيعية. فالناس مختلفون في ألوانهم وألسنتهم وطباعهم ومدركاتهم وعقولهم ومعارفهم، ومختلفون – أيضا – في عقائدهم وآرائهم واتجاهاتهم ومناهجهم، وكل ذلك آية من آيات الله نبه عليها القرآن الكريم في قوله – تعالى –: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

فالكون – بهذا المفهوم – قائم كله على التعددية سواء أكان ذلك في الشرائع: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللّه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[2]، أم في الأجناس والقوميات التي تبدو في اختلاف الألوان والألسنة:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لايَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾[3].

فالقرآن الكريم – إذن – يعترف بالتعدد والتنوع، ويعده قاعدة كونية

(١) هود، ١١٨.
(٢) المائدة، ٤٨.
(٣) الروم، ٢٢.

شاملة وناموساً ثابتاً، ويعتبر التعددية هي الأصل فيه: "بل إنه ليجعلها القانون الإلهي والسنة الإلهية – الأزلية والأبدية – في ميادين الاجتماع الإنساني وشؤون العمران البشري التي لا تبديل لها ولا تحويل فيها. فالوحدانية خصيصة للخالق الواحد سبحانه وتعالى، أما ما عدا الخالق الواحد من عوالم الكون الطبيعي وشؤون الاجتماع البشري، وميادين الحضارة والعمران فقائمة على التعددية كسنة جارية وحاكمة في كل هذه الميادين"[1].

٨ – الانغلاق الفكري: الناتج عن التعصب للرأي والنظرة الأحادية والاعتداد بالرصيد العلمي الشخصي حتى ولو كان زهيدا، الأمر الذي يحرم النفس من أن تتطلع إلى ما عند الآخرين وأن تتفتح على محيطها فتلقح أفكارها بالأفكار المخالفة وتقيس ما عندها بما عندهم ليتجلى لها الحق وتظهر لها الأدلة واضحة مشرقة، وتطمئن إلى ما عندها من الحق.

وقد عرف عن دعاة التكفير أنهم ينغلقون على مصادرهم العلمية ولا يتجاوزنها إلى غيرها ولا يرضون بها بديلا، بل إنهم يفرضون على اتّباعهم ألا يتصلوا بأحد، وألا يقرؤوا كتبا تناقض أفكارهم، وألا يشاهدوا قنوات فضائية تبث ما يعارض فكرتهم أو ينقضها، وكما أسقطوا من حساباتهم كتب التفسير والعقائد والأصول وكل ما أنتجه المسلمون خلال قرون طويلة من التفاعل مع الكتاب والسنة لأن أصحابها مرتدون عن الإسلام، أسقطوا – أيضاً – التاريخ الإسلامي واعتبروه هباء ولم يعتدوا إلا بالقصص القرآني لأن التاريخ الحقيقي هو أحسن القصص الوارد في القرآن الكريم فقط[2]، حيث كانوا يرون عدم الاعتداد

(١) محمد عمارة."حضارة.. أم حضارات". مجلة المسلم المعاصر. س ١٩. ع ٧٣. أغسطس ١٩٩٤ ـ يناير ١٩٩٥ م. ص ٩.

(٢) الغلو في التكفير: المظاهر، الأسباب، العلاج. أبو حسام الدين الطرفاوي. ص ١٣٠.

بالتاريخ الإسلامي؛ لأن وقائعه غير ثابتة الصحة، ولذا يحرم دراسة عصور الخلافة الإسلامية أو الاهتمام بها[1]. فحكموا على أنفسهم بالسجن الفكري، لأن من آثار التعصب المقيتة أنه يمنع من سماع الحق فضلا عن قبوله، ويحمل صاحبه على الانقياد للأهواء والمتابعة على غير حجة، قال الشوكاني: " واعلم أنه كما يتسبب عن التعصب محق بركة العلم وذهاب رونقه وزوال ما يترتب عليه من الثواب، كذلك يترتب عليه من الفتن المفضية إلى سفك الدماء، وهتك الحرم، وتمزيق الأعراض، واستحلال ما هو في عصمة الشرع ما لا يخفى على عاقل وهذا يعرفه كل من له خبرة بأحوال الناس"[2].

إن التعصب للرأي والنفس يُوَلِّدُ لدى الإنسان الشعور بالاستغناء عن الناس والتعالي عليهم، بل والرغبة في إملاء خياراته عليهم، ويدفعه إلى إغلاق أبواب المعرفة التي تجود بها القرائح الإنسانية، وتخصبها العقول النيرة، مما يفضى به إلى التقوقع حول الذات والانطواء عليها والإصابة بالعزلة الفكرية والعقلية والاجتماعية. والإنسان الذي يغلق على نفسه باب الفكر المختلف المتنوع إنما يغلق على عقله الأوردة التي تحمل إليه المعرفة الناضجة التي قلبتها العقول، ومحصتها النظرات الثاقبة والآراء السديدة: "فيضيق نطاق عقله ويتسع نطاق هواه، وحينئذ لا يفيده علمه وإن سولت له نفسه أنه يستفيد منه، ولا بالأولى يفيد غيره... ويحرم نفسه من تقويم أفعاله وتهذيب أخلاقه، فتقوى دواعي الاستئثار في نفسه وتضعف دواعي التعاون فيها، وحينئذ لا يصلحه عمله وإن

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف. يوسف القرضاوي. ص ١٠٠.

(٢) أدب الطلب ومنتهى الأرب الشوكاني، تحقيق: محمد عثمان الخشت. مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع. القاهرة. ص ٩٢.

توهم أنه يصلح به، ولا بالأولى يصلح غيره "[1]؛ لأن العقل الذي لا يفكر يموت، والعضو الذي لا يتحرك يضمر ويفقد صلاحيته.

وهذا ما يفسر النقص العلمي وعدم الاتزان الفكري الذي يطبع دعاة التكفير بسبب قلة بضاعتهم في العلوم الشرعية والاجتماعية والطبيعية، ويفسر – أيضاً – تجرؤهم على إصدار الفتاوى بالتحليل والتحريم، والتكفير والتبديع وهم غير مؤهلين لا عقلا ولا شرعا لاستنباط الأحكام[2]، ويحيلنا إلى السبب الحقيقي الذي أوقعهم في الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي والكبر على الآخرين والاستخفاف بأقوالهم مهما ظهرت حجتها واتضح دليلها.

إن التعصب مرض مقيت وداء عضال، والانغلاق الفكري سبيل حتمي للزوال والاندثار، بينما يدفع الانفتاح على الآخر المختلف الإنسان إلى الخروج من شرنقته واستنشاق الهواء الصحي، ويدرب عقله ونفسه على التخلص التدريجي من النزوع إلى العنف في تسوية خلافاته مع الآخرين، وهو – أيضاً – أسلوب فعال للتخفيف من غلواء الأنانية الفردية، ويعلم الإنسان كيف يتنازل عن تعصبه لمعتقداته وآرائه، وعن تعاليه الذي يزين له أنه الوحيد الذي يمثل القيم، وأن ذاته فوق الحوار والنقاش والتساؤل ؛ لأن النفس التي تؤمن بالانفتاح ووجوب الالتقاء مع الآخر والتفاهم معه تترك دائما في داخلها هامشا للخطأ والصواب في الفكر الذي تحمله، وهذا ما يعزز فيها الرغبة الدائمة في المراجعة والنقد الذاتي الذي يفتح لها – بلا شك – المجال أمام النمو والنضج وتصحيح الأخطاء[3]، ولله در الإمام الشافعي الذي قال حكمته الشهيرة التي

(١) حوارات من أجل المستقبل. طه عبد الرحمن. منشورات الزمن. الدار البيضاء. المغرب.١٩٩٩. ص ٧.

(٢) فريضة الحوار. عمر عبد الله. ص ١٧٨ وما بعدها.

(٣) راجع: سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي. خالص جلبي.دار الفكر. دمشق. دار الفكر المعاصر. بيروت. ط ١. ١٤١٩ هـ. ١٩٩٨ م. ص ٥٤.

لا تزال ترن في آذان الزمان عبر القرون: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

مما سبق نلاحظ أن العوامل الفكرية لها نصيب الأسد في صياغة وتشكيل الفكر التكفيري وبخاصة إذا تشابكت هذه العوامل فيما بينها وتفاعلت فإنها تفضي بكل سهولة إلى أعلى درجات التطرف وأشدها قسوة، وتبقى العوامل الفكرية هي المنبع الأصلي للتشدد والتطرف والغلو والتكفير، بحيث تبدو العوامل الأخرى بجانبها ثانوية، وبالتالي فإن أي معالجة لظاهرة التكفير يجب أن تنطلق من تطهير الفكر وتصحيحه.

خامساً: نحو منهج سليم لبناء التفكير الوسطي:

لقد تبين لنا من خلال استعراضنا لأهم العوامل الفكرية التي تصنع العقلية التكفيرية أن الخلل آت من الطريقة التي تمت بها صياغة وتشكيل العقل التكفيري، وبما أن التجارب الكثيرة والدراسات المتواترة قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن الفكرة لا تواجه إلا بالفكرة، فإنه يتعين علينا أن نجابه الفكر التكفيري المتطرف بالفكر الصحيح المستنير. ومما يؤكد هذا التوجه ويؤيده أن الإنسانية قد أدركت بعد قرون طويلة من المعاناة أن إقصاء الآخر وإلغاءه من خلال الحجر على فكره واضطهاده، و إبعاده عن الساحة لا يفنيه ولا ينهي اختلافه، بل يظل موجودا محتضنا اعتقاداته وآرائه في قوة، و لا يرضى عنها بديلا، مهما تعرض له في سبيل ذلك من آلام وتضحيات، منتظرا اللحظة المناسبة للرد على القهر بالقهر والظلم بالظلم، لذلك كان تاريخ البشرية سلسلة طويلة من الآلام و الجراح والضحايا لأنها لم تَعِ هذا الدرس البليغ الذي يؤكد أن " الفكر المضاد المضطهد يتنامى ويقوى ويمتد بفعل الاضطهاد، في المواقع التي تقوم بمحاصرته ومحاربته أكثر من المواقع

التي يأخذ فيها حريته"[1].

وتفسير ذلك أن الفكر إذا انطلق في أجوائه الطبيعية بشكل هادئ وفي أجواء حوارية حميمية تحول إلى ظاهرة طبيعية، وفقد ذلك السحر والغموض الذي كان يغلفه عندما كان تحت الحصار والكبت والسرية، وتفاعلت عناصره الذاتية مع باقي المعطيات الفكرية التي تختلف معه فصهرته في بوتقة الفكر الإنساني ومحصته ووزنته فلم تبق فيه إلا مضامين الحق والخير والجمال، وإلا تلاشى من تلقاء نفسه كالزبد الذي يذهب جفاء مصداقا لقوله – تعالى –: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾[2].

لذلك كان لزاما علينا أن نطرح على بساط البحث وبكل شفافية ومصداقية مقولات الفكر التكفيري ونخضعه للتمحيص والنقد البناء، ونبين بالدليل العلمي خطأه وتجافيه عن الحق، ومخالفته الصريحة للمرجعين المعصومين: الكتاب والسنة، فعندما تتناقش التوجهات الفكرية المختلفة وتتحاور وتتناظر تظهر الفكرة الصحيحة فتنتشر وتسود وتفرض نفسها بقوة منطقها، وتضعف الفكرة الخاطئة أمام قوة الحجة والدليل ثم تذوي تلقائيا وتموت.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أبرز العوامل الفكرية التي تصنع الفكر التكفيري، فإن الفكر السليم المستنير تصنعه العوامل المقابلة لها ومنها:

١ – الفهم الصحيح للدين: إن فهم الدين فهما صحيحا منضبطا بالقواعد الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله وفهم السلف الصالح واجتهاد

(١) محمد حسين فضل الله. " الحوار: أبعاد و إيحاءات و دلالات ". مجلة المنطلق. ع ١٠٥. أيلول ١٩٩٣م. بيروت. ص ١٧.

(٢) الرعد، ١٧.

العلماء الأعلام المشهود لهم بالصلاح والتبحر خطوة ضرورية نحو بناء الفكر السليم الذي ينسجم مع مقولات الوحي ويتجاوب مع مقاصد الشريعة، ولا يتطرف في فهم النصوص، ولا يغلو في تأويل معانيها. ذلك أن الفهم الصحيح ينتج الفكر المستقيم المعتدل المتوازن الذي يبني ويوحد ويلم الشمل ويرأب الصدع وينشر الخير والسلام ويشيع أجواء الأمن والاستقرار بين الناس، حتى يهتدي الضال، ويتعلم الجاهل.

ولا يكفي أن يكون الإنسان متشددا في العبادة ومواظبا على الشعائر ومكثرا من النوافل ليفهم الدين، فقد كان الخوارج مضرب المثل في كثرة الصيام والقيام والتلاوة غير أن ذلك لم يغن عنهم شيئا لأن حقيقة الدين التي تكتسب بالعلم قد غابت عنهم. وقد أشار الرسول – ﷺ – إلى هذه الظاهرة التي تميزهم عندما تنبأ بظهورهم في أمته فقال لأصحابه: ﴿ يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مَعَ صَلاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ ﴾[1]، يقول الشاطبي: " ألا ترى إلى الخوارج كيف خرجوا عن الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمي؟ لأن رسول الله – ﷺ – وصفهم بأنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يعني – والله أعلم – أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم، لأن الفهم راجع إلى القلب، فإذا لم يصل إلى القلب لم يحصل فيه فهم على حال، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف فقط، وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لا يفهم"[2].

(١) صحيح البخاري. كتاب فضائل القرآن. باب إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به. رقم ٤٦٧٠.

(٢) الاعتصام. الشاطبي. ج ٢. ص ٦٩١.

ومن أعجب ما أثر عنهم أن عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل الإمام علي – كرم الله وجهه – غيلة كان يفخر بذلك ويرجو دخول الجنة بهذه الجريمة، وقال للسياف الذي جاء لينفذ فيه القصاص: لا تقتلني مرة واحدة، قطع أطرافي شيئا فشيئا حتى أرى أطرافي تعذب في سبيل الله[1]. ونظم فيه عمران بن حطان قصيدة يشيد فيها بعمله، ويرجو أن يكون قتله لعلي بن أبي طالب شفيعا له عند الله فقال:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره حينا فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

وقد نعى الحسن البصري على الذين يشتدون على أنفسهم في العبادات ويهجرون مجالس العلم وبين لهم مغبة ذلك، وأن سلوكهم سوف يؤدي بهم شيئا فشيئا إلى الغلو المذموم الذي أهلك من كان قبلهم، بينما الخير كله في العلم الذي ينير البصائر ويضيء ظلمات العقول فقال:" العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم، فإن قوماً طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد – ﷺ – "[2].

٢ – القراءة المقاصدية للنصوص: ذلك أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة منظومة متكاملة من القيم والمبادئ والأحكام التي أراد الله – تعالى – أن تكون خاتمة الرسالات السماوية وآخر الوحي النازل إلى العباد إلى أن تقوم الساعة، وهذا يستدعي أن تتضمن جميع ما يصلح

(١) راجع: تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري). أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. دار الكتب العلمية. بيروت. ط ٢. ١٤٠٨ هـ. ١٩٨٨ م.مج ٣. ص ١٥٦ وما بعدها.

(٢) سير أعلام النبلاء. الذهبي. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ١. ١٤٠٩ هـ. ج ٤. ص ٥٨٦.

العباد عبر جميع الأزمنة والأمكنة، وهي مبنية في معناها ومبناها على درء المفاسد وجلب المصالح ليتم إعمار الأرض وتسخير ثرواتها لخير بني آدم، وتمهيد السبل لتعبيد العباد لله رب العالمين بالدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، يقول العز بن عبد السلام: " والشريعة كلها مصالح، إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح "(١)، وكل حكم أو عمل يعارض هذا التوجه فليس من الدين في شيء، " إن الشريعة جاءت لإقامة مصالح الناس وتحقيق سعادتهم الدنيوية والأخروية، وبناء عليه فإن كل أمر يفضي إلى إبطال هذه الغاية أو الإخلال بها فهو مدفوع عن الشريعة "(٢).

وحتى يتم تنزيل هذه المنظومة المعصومة على الواقع لتحقق مراد الله وفي الوقت نفسه صلاح أمر العباد والبلاد يجب أن تتناولها أفهام العلماء الراسخين في العلم الذين يقدرون المآلات ويفقهون متطلبات الواقع ويدركون أبعاده، ويستشرفون بثاقب أبصارهم الأولويات ويحددون مواطن الصلاح ومكامن الخلل، يقول ابن تيمية: " العلم بصحيح القياس وفاسده من أجل العلوم، وإنما يعرف ذلك من كان خبيرا بأسرار الشرع ومقاصده، وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من المحاسن التي تفوق التعداد، وما تضمنته من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وما فيها من الحكمة البالغة والرحمة السابغة والعدل التام"(٣).

ولسنا نرى في سفك الدماء المعصومة واستحلال الأموال والأعراض البريئة وإثارة الفتن في بلاد المسلمين وتدمير الممتلكات العامة مصلحة للعباد ولا لشرع الله ولا للدعوة الإسلامية، والذين يظنون أنهم يمكنون لشرع الله

(١) قواعد الأحكام. العز بن عبد السلام. دار المعرفة. بيروت. ج ١. ص ٩.
(٢) المقاصد العامة للشريعة. عز الدين بن زغيبة. دار الصفوة. ط ١. ١٤١٧ هـ. ص ٣٦٧.
(٣) مجموع الفتاوى. أحمد بن تيمية. ج ٢٠. ص ٥٨٣.

بهذه الطريقة المتوحشة واهمون لأن " الشريعة مصلحة كلها، وعدل كلها، ورحمة كلها، فما خرج عن المصلحة إلى المفسدة، وعن العدل إلى الجور، وعن الحكمة إلى العبث، وعن الرحمة إلى ضدها، فليس من الشريعة"[1]، وقد أجمع العلماء والعقلاء وحتى العامة من أصحاب الفطر السليمة أن ما يفعله هؤلاء الغلاة من تكفير المسلمين والنيل من أعراضهم وقطع الأرحام واستهدافهم بالقتل والترويع ليس من الشريعة في شيء.

٣ – تلقي العلم من المشايخ الثقات: فلو أن هذا الشباب الجامح الذي جرفته تيارات التكفير – فلطخ أيديه بدماء إخوانه ودماء أهل الذمة والمعاهدين المستأمنين ثم صار هو نفسه وقودا للنار المتأججة التي أشعلها في أبناء الأمة – قد جلس إلى العلماء المتبصرين الذين فقهوا أحكام الدين واستوعبوا مقاصده وأدركوا مراميه وأبعاده، واطلعوا على التاريخ وفهموا الواقع المعيش بكل مكوناته فهما عميقا، واستفتاهم في حال الأمة، وبحث معهم الأسباب الكامنة وراء سقوطها فريسة في أيدي أعدائها، ووقوعها في براثن الجهل والتخلف لبينوا له كيف تعمل سنن الله في الأمم التي تتخلى عن وظائفها الاستخلافية، وتركن إلى الدعة والكسل، ولعرفوا أن أمراض الأمة نابعة من داخلها، ومتأتية من إعراض أفرادها عن منهج الله في أنفسهم وأسرهم ومجتمعاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية، وما تسلط الأعداء عليها إلا مظهرٌ من مظاهر ضعفها الداخلي.

إن العلماء الثقات إذا مدوا جسور الحوار والنقاش مع هذا الشباب الثائر الذي يبحث عن التغيير ولا يجد له سبيلا إلا سبيل القتل والتفجير فإنهم

(١) إعلام الموقعين. ابن قيم الجوزية. دار الفكر. بيروت. ج ٣. ص ١٤ – ١٥.

يوجهون طاقاته نحو القنوات الشرعية التي تضع الأمة على أول طريق نهضتها، وهي التي تتلخص في إحداث التغيير من الداخل بمجاهدة النفوس على الاستقامة على شرع الله، ومعالجة أمراض الأمة التي تكرس تخلفها وتعمق مأساتها وتؤخر نهوضها والتي تراكمت عبر قرون من الانحطاط والغفلة والبعد عن المرجعية الإسلامية والانسلاخ عن قيمها الحية التي كانت تبعث بروحها المتدفقة الهمة والعزيمة في نفوس المسلمين فيبدعون في مختلف فنون الحضارة.

وهؤلاء هم ورثة الأنبياء في أداء أمانة العلم الذي تحيا به الأمة ويصلح به حالها وتستنير به عقول أبنائها فيتحولون سواعد قوية تعلي بنيانها وتحمي حياضها، لذلك قال الشاطبي مرشدا إلى المنهج السديد لتلقي العلم الصحيح: " من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقيق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام... وقد كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلى الكتاب وصارت مفاتحه بأيدي الرجال "[1].

٤ – الإقرار بحق الاختلاف: إن الإقرار بالاختلاف والقبول بواقع التعددية يُوجِدُ في الوعي الإنساني استعدادا نفسيا لقبول الآخر المختلف واحترامه ثقافيا وفكريا، والاعتقاد بأن اختلافه تنوع طبيعي يبعث على الغنى والتطور وليس تنوع تهديد أو عداء، وأن الخروج من الذات للالتقاء بالآخر سيفتح أمامها فضاءً واسعا لاكتشاف المساحة المشتركة بين الطرفين وبلورتها، والانطلاق منها مجددا للنظر إلى الأمور من زاوية أوسع، وبعقلية متفتحة أكثر، ووجهة نظر أغنى وأعمق.

كما أن الإقرار بحق الاختلاف يربي النفس على التسليم للحق والرجوع

(١) الموافقات في أصول الشريعة. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط ١. ١٤١١ هـ. ج ١، ص ٥٦، ٥٧.

إليه كلما اتضحت معالمه وظهرت براهينه حتى ولو اصطدم مع ما كانت تعتقده قبل ذلك، ويشجعها على التغلب على أهوائها وتجاوز حظ النفس والقضاء على الغرور الذي يزين لها أنها الوحيدة التي تمتلك الحقيقة وكل ما عداها هراء وباطل، وأسلوب ناجع في الحد من انتشار ثقافة التطرف والغلو والتعصب التي ترفض رفضا قاطعا المناقشة والمحاورة وإخضاع قناعاتها للبحث والتمحيص، والمبالغة في الانتصار لها على حساب الحق.

وقد انفتح الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – وتابعوهم على الآراء والاجتهادات ووجهات النظر المختلفة، وحاوروا بعضهم فيما أشكل عليهم، وطرحوا أدلتهم وحججهم، ولم تضق نفوسهم ولا عقولهم بهذا الاختلاف على أساس أنه واقع إنساني وظاهرة طبيعية نابعة من اختلاف مدارك الناس واستعداداتهم العقلية والنفسية، ولم يكن أبدا ذريعة لإثارة الضغائن والإحن واستباحة الصراع فيما بينهم. وضربوا لنا أروع الأمثلة في الالتزام بأدب الاختلاف والترفع عن سفاسف الأمور وصغائرها، والتواضع للحق، والخضوع للدليل المقنع، والاعتراف لأهل العلم والفضل بعلمهم وفضلهم والتأدب في محاورة من يختلفون معه، واتساع صدورهم لهم، "فقد كان في الصحابة والتابعين – رضوان الله عليهم – ومن بعدهم من يقرأ البسملة ومنهم من لا يقرؤها، ومنهم من يجهر بها، ومنهم من يسر، وكان منهم من يقنت في الفجر، ومنهم من لا يقنت فيها، ومنهم من يتوضأ من الرعاف والقيء والحجامة، ومنهم من لا يتوضأ... إن هذا كله لم يمنع من أن يصلي بعضهم خلف بعض، كما كان أبو حنيفة وأصحاب الشافعي وأئمة آخرون يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية

وغيرهم"[1].

٥ - التزام الوسطية والاعتدال: وهي السمة الحقيقية للإسلام. فهو دين الوسط والاعتدال والاتزان الذي ينسجم مع الفطرة السليمة، ويتجاوب مع أشواق الروح ويستجيب لمطالب الجسم وينكر كل غلو أو تشدد كما ينكر في الوقت ذاته كل تفريط أو تقصير ؛ لأن كلا الأسلوبين يصادمان سنن الله في الأنفس والآفاق، ويعيقان مهمة الاستخلاف التي انتدب لها الإنسان ويلدان الفساد والشرور والبغي والعدوان على كل المستويات، والروح العامة لشريعته مبنية في أساسها على اليسر ورفع الحرج عن الناس. فالتيسير صفة عامة للشريعة الإسلامية في أحكامها الأصلية، وكذا في أحكامها الطارئة عند الأعذار، فلا توجد فيها مشقة غير معتادة؛ لأن الشارع لم يقصد إلى التكليف بالشاق والإعنات فيه.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿ إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ ﴾[2]. قال ابن حجر العسقلاني: "والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب. وقوله: فَسَدِّدُوا أي: الزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط، ولا تفريط، قال أهل اللغة: السداد التوسط في العمل. قوله: " وَقَارِبُوا " أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه.قوله: وَأَبْشِرُوا أي: بالثواب على

(١) د. طه جابر فياض العلواني. أدب الاختلاف في الإسلام. سلسلة كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر. ط ١. جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ. ص ١١٨.

(٢) صحيح البخاري. كتاب الإيمان. باب الدين يسر. رقم ٣٩، وصحيح مسلم. كتاب صفة القيامة والجنة والنار. رقم ٢٨١٦.

العمل الدائم وإن قل، والمراد: تبشير من عجز عن العمل بالأكمل؛ لأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره، وأبهم الْمُبَشَّرَ به تعظيما له وتفخيما"[1].وهذا الحديث الشريف حكمة بالغة في بابه لما تضمنه من الإرشاد إلى أقوم الطرق في التعاطي مع الفرائض والواجبات في حدود الوسطية الإسلامية السمحة.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. دار المعرفة. بيروت ج ١. ص ٩٤. ٩٥.

الخاتمة

وفي الختام نخلص إلى أن التكفير داء قديم ابتليت به جميع الأمم وذاقت ويلاته واكتوت بناره، وأنه ظهر عند المسلمين أول ما ظهر على يد الخوارج الذين اجترؤوا على تكفير ثلة من كبار الصحابة وأجلائهم، ثم لم يكتفوا بذلك فأتبعوا بهم جماهير المسلمين الذين لم يروا رأيهم وسلوا سيوفهم على من خالفهم، وأوقعوا القتل في المسلمين على اعتبار أنهم كفارٌ خارجونَ عن الملة. ثم شهد العصر الحديث بروز جماعات تتبنى هذا الفكر وتدعو إليه وتكفر المسلمين حكاما وشعوبا، وتعتزلهم وتتبرأ منهم وتؤول نصوص القرآن والحديث على مقتضى فهمها القاصر ونظرتها المتطرفة، ثم لم تلبث أن جنحت للعنف ورفعت راية الجهاد لإقامة دولة الخلافة وتطبيق شرع الله، فلقي المسلمون على أيديها أهوالا يشيب لها الولدان، وأزهقت أرواحا بريئة، وهتكت أعراضا مصونة، ونهبت أموالا معصومة، واحتسبت هذا الفساد العريض والفتنة الهوجاء في سبيل الله وابتغاء وجهه الكريم.

وقد تبين من خلال الدراسات الكثيرة التي تناولت هذه الظاهرة الخطيرة أنها وليدة عوامل عديدة متشابكة ومتداخلة، تضافرت جميعا لتصنع هذه الجماعة المتطرفة التي روعت الآمنين واستباحت الأعراض والأموال وأعملت معاول الهدم في الأوطان، منها ما هو سياسي، ومنها ما هو اقتصادي، ومنها ما هو فكري، ومنها ما هو تربوي، ومنها ما هو نفسي...إلخ. ونحن نسب أن للعوامل الفكرية دوراً لا يستهان به في صناعة العقلية التكفيرية وتوجيهها.

ومن خلال أدبيات جماعات التكفير وفتاواهم ومواقفهم نستطيع أن نستشف جملة من العوامل الفكرية التي صاغت عقليتهم وشكلتها بالطريقة التي نراها اليوم، والتي سوغت لهم استحلال دماء إخوانهم واستباحة أعراضهم

وأموالهم، والفتك بأوطانهم في قسوة ووحشية تذهل منها العقول وتحار الألباب. ومنها الجهل بالدين الذي هو رأس كل خطيئة، والقراءة الحرفية للنصوص، والتأويل الخاطئ لها، والاقتداء بالمشيخة المنحرفة التي يمثلها الغلاة المتعصبون الذين لا يهدأ لهم بال حتى يروا نار الفتنة تلتهم العباد والبلاد، والتمركز حول الذات وإقصاء الآخر، والتعالم وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة وأغلبهم أنصاف متعلمين، واعتماد منطق الثنائية الذي يفرض على الآخر المختلف طريقين لا ثالث لهما إما الانضمام إلى دعاة التكفير وتبني مذهبهم في الدين والحياة وإما التلبس بتهمة الكفر التي تجعله مستهدفا بالقتل في كل وقت وكل حين، والانغلاق الفكري الذي قادهم إلى الجمود والتعصب المقيت.

إن هذه العوامل وغيرها مما يتصل بمنهج تلقي العلم وطريقة التفكير هي التي ولدت ظاهرة التكفير الخطيرة، وحتى يتم التخفيف من غلوائها وتجفيف منابعها شيئا فشيئا إلى حين القضاء عليها ينبغي أن نسلك أسلوبا مماثلا بأدوات صحية ومناهج سليمة لاقتلاع جذور هذا الفكر الموبوء من عقول أصحابه واستبداله بفكر صحيح مستنير مبني على أسس متينة من الفهم الصحيح للدين، والقراءة المقاصدية للنصوص المعصومة، وتلقي العلم من المشايخ الثقات الراسخين فيه، والإقرار بحق الاختلاف، والتزام الوسطية والاعتدال في جميع القضايا الدينية والدنيوية.

وإذا كانت الفكرة الخاطئة المنحرفة قد دفعت أصحابها لأن يعيثوا في الأرض فسادا، فإن مما لاشك فيه أن الفكرة الصحيحة المبنية على الدليل الساطع ستدفع أصحابها إلى البناء والتعمير ونشر الخير والسلام في كل مكان، ومن هنا تأتي الأهمية البالغة التي يكتسبها الفكر في حياة المجتمعات والأمم.

التوصيات:

إن الحل الأمني لظاهرة التكفير حل جزئي ولا يحسن اللجوء إليه إلا في الحالات التي يتحول فيها هؤلاء المنشقون عن المجتمع من حالة المناوأة الفكرية إلى مرحلة العنف المسلح. أما فيما عدا ذلك من الحالات فإن المطلوب هو الاستغلال المكثف للإمكانيات العلمية والثقافية والإعلامية وإفساح المجال للفعاليات الفكرية المعتدلة ذات الكفاءات العلمية لتواجه هذا الفكر الضال بقوة الكلمة ووضوح الدليل لإيقاف تشكله الذهني ونمو أصحابه العددي، وأن تدعوهم مرارا وتكرارا إلى طاولة الحوار لتبادل الآراء وطرح القضايا الشائكة على بساط البحث.

تجنيد العلماء المقتدرين من ذوي المواهب الدعوية والمهارات الحوارية والزاد العلمي الكافي والتخصص باستقراء شبهات دعاة التكفير، واستعراض دعاواهم وفتاواهم، وتتبع مقالاتهم ومؤلفاتهم وسائر خطاباتهم والتعرف على رؤوسهم ومرجعياتهم، ثم الرد عليهم بالحجة والدليل والبرهان الشرعي والعقلي المقنع، وصياغتها في قالب سهل بسيط بحيث لا تبقى في مستوى النخبة والخاصة، ونشر هذه الجهود الفكرية على أوسع نطاق حتى يستفيد منها الجميع، ويدركون بوضوح أبعاد الظاهرة ومخاطرها، فأغلب الشباب المتورط لم يؤتوا – كما قال الشيخ القرضاوي – من فساد العقيدة وسوء الطوية، وإنما أتوا من سوء الفهم.

أن من حق جميع أفراد المجتمع الذين يعدون ضحايا محتملين لموجة التكفير أن يستفيدوا من حملات توعية علمية مكثفة ومتواصلة لمعرفة أبجديات التفكير التكفيري ومعالمه الكبرى ومنابعه وأسبابه ومآلاته والاعتراف بوجوده وآثاره بكل وضوح وشفافية وصراحة حتى يكونوا على بينة من الظاهرة، وتتضح الصورة في أذهانهم فيكتسبوا مناعة عقلية ضدها

ويسهموا بدورهم في دفع موجاتها وتضييق نطاقها بما تتيحه لهم علاقاتهم المتشابكة مع بعضهم بعضا من لقاءات وحوارات بين الأبناء والأقارب والأصدقاء والأصحاب، بدل أن يستقوا معلوماتهم عن هذا الخطر الذي يتهدد أرواحهم وبلدانهم من مصادر مشبوهة.

إن إزاحة الستار عن الفكر التكفيري وإخضاعه علنا للتقييم والتمحيص والنقاش الحر النزيه بعيدا عن التجريح والسب والإهانة سيزيح عنه غلاف الغموض والسرية والجاذبية التي يتمتع بها وهو محاصر في الزوايا المظلمة، وسيدفع بكثير من الطاقات الفكرية الشبابية المتمردة إلى الإسهام في هذا النقاش، ويدفعها إلى تفريغ شحناتها في ساحات الحوار فتهدأ ثورتها وينطفئ انفعالها المتأجج وتجنح إلى السلم والمحاورة، وتأخذ مكانها الطبيعي في المجتمع بهدوء، وتدرك أنها جزء من خارطة ثقافية تزخر بالتنوع والاختلاف الذي يغنيها ويزيدها ثراء، وأن الانكماش والتقوقع داخل فكرة واحدة يستل منها روح الحياة ويؤول بها إلى التحجر ثم يحكم عليها بالاندثار والعدم.

يتعين على المؤسسات الثقافية والفكرية والإعلامية والدينية أن تعتبر نفسها طرفًا فاعلًا في مواجهة التكفير، وليس طرفًا متطوعًا ؛ لأن الواجب المنوط بها في إنقاذ الوطن وإنقاذ الشباب المتورط أكبر بكثير من واجب قوات الأمن. فهذه المؤسسات هي التي بوسعها صياغة خطاب فكري معتدل ومستنير ومقنع تتوجه به إلى جميع أطياف المجتمع باستغلال الإمكانيات السمعية والبصرية وتقنيات الاتصال المتطورة لوضع استراتيجية متكاملة في هذا المجال.

تفعيل تجربة المناصحة التي عملت بها المملكة العربية السعودية وآتت ثمارا طيبة. حيث لم تكتف الحكومة بمقاضاة الشباب المتورط في قضايا التكفير والإرهاب وإصدار الأحكام في حقهم، وإنما كلفت مجموعة من العلماء

الأكفاء ليجتمعوا بهم بصفة دورية، ففتحوا معهم أبواب النقاش على مصراعيه، وطرحوا معهم كل القضايا العالقة والشبهات التي يثيرونها والتساؤلات التي تدور في أنفسهم والاعتراضات التي يجدونها على أنظمة الحكم وعلى النظام الاجتماعي، وتبادلوا معهم وجهات النظر وبينوا لهم مواطن الخلل في تفكيرهم ومكامن القصور في نظرتهم، وعرفوا منهم الأسباب التي دفعتهم إلى هذا السبيل فصححوا لهم توجههم الفكري بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والدليل الواضح والقرائن الواقعية، وكان من نتائج هذه المبادرة الدؤوب رجوع كثير من الشباب عما كانوا يعتقدونه، وتسليمهم للحق واعترافهم أنهم كانوا على ضلال، وإبداؤهم الاستعداد الطيب للانخراط من جديد في المجتمع وممارسة مهام الإصلاح والدعوة إلى الله ولكن في الإطار الشرعي، ووفق المنهج الصائب. وأتبعت الحكومة ذلك بتخفيف العقوبات عنهم فأنقذت مستقبل مئات الشباب الذين كانوا غارقين في أوحال التكفير.

دلت تجربة المناصحة دلالة واضحة وقطعية على أن مشكلة التكفير التي تعد في أساسها مشكلة فكرية إنما تم حل جانب كبير منها حلا يكاد يكون جذريا عن طريق الحوار والنقاش وتبادل الآراء. صحيح أن الحل الأمني يفرض نفسه في حالات خاصة ويكون ضروريا في حينه، لكنه ليس دائما ولا نهائيا. إن الواقع والدلائل تشير بوضوح إلى أن كسب معركة التكفير وحماية المجتمع منها وتحصين الشباب ضد تأثيراتها إنما يكون باستبدال العقلية التكفيرية بعقلية مستنيرة إيجابية واعية.

قائمة المصادر والمراجع

- الإحكام في أصول الأحكام. علي الآمدي. علق عليه: عبد الرزاق عفيف. دار الصميعي. الرياض. ط ١. ٢٠٠٣م.
- أدب الاختلاف في الإسلام. د. طه جابر فياض العلواني. سلسلة كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر. ط ١. جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ.
- أدب الطلب ومنتهى الأرب. الشوكاني. تحقيق: محمد عثمان الخشت. مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع. القاهرة.
- الإرشاد إلى معرفة الأحكام. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. مكتبة المعارف. ١٤٠٠هـ.
- أسباب وجود ظاهرة العنف والإرهاب في أوساط الشباب المسلم وحلولها. سلمان العودة. محاضرة ضمن فعاليات مؤتمر الإرهاب بين تطرف الفكر وفكر التطرف. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. ١٤٣٠ هـ. ٢٠٠٩م. المحور الأول.
- الاعتصام. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي. تحقيق: سليم بن عيد الهلالي. دار ابن عفان. الخبر. السعودية. ط ١. ١٤١٢ هـ.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين. ابن قيم الجوزية. دار الفكر. بيروت.
- الاقتصاد في الاعتقاد. أبو حامد الغزالي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط ١. ١٤٠٣ هـ.
- الإيمان. معالمه وسننه واستكماله ودرجاته. أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، ط٢. ١٤٠٣هـ.
- البحر الرائق شرح كنز الدقائق. ابن نجيم الحنفي. دار الكتاب الإسلامي. ط ٢.
- بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية. ابن تيمية. تحقيق: موسى سليمان الدويش. مكتبة العلوم والحكم. ط ١. ١٤٠٨ هـ.
- تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري). أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. دار الكتب العلمية. بيروت. ط ٢. ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.
- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري. علي بن الحسين

بن عساكر الدمشقي. دار الكتاب العربي. بيروت. ط٣. ١٤٠٤هـ.

- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم. محمد بن إبراهيم بن سعد الله. تحقيق: محمد بن مهدي العجمي. ٢٠٠٨م.
- تعظيم قدر الصلاة. محمد بن نصر المروزي. تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي. مكتبة الدار. المدينة المنورة. ط ١. ١٤٠٦هـ.
- تفسير القرآن العظيم. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. دار الفكر. بيروت. ١٤٠٤هـ.
- التكفير وضوابطه. منقذ بن محمود السقار.
- التكفير: جذوره، أسبابه، مبرراته. نعمان السامرائي. دار المنارة. جدة. ط ١. ١٤٠٤هـ.
- تهذيب اللغة. أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري. تحقيق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط ١. ٢٠٠١هـ.
- جامع البيان في تفسير القرآن. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. دار الفكر. بيروت.١٣٩٨هـ. ١٩٧٨م.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم. ابن رجب الحنبلي. دار الأخيار للنشر. الرياض. ط ٢. ١٤٢٧هـ.
- الجامع لأحكام القرآن. أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط ١. ١٤٠٨هـ.
- الحكم وقضية تكفير المسلم. سالم البهنساوي. دار البحوث العلمية للنشر. الكويت. ط ٣. ١٤٠٥هـ.
- حوارات من أجل المستقبل. طه عبد الرحمن. منشورات الزمن. الدار البيضاء. المغرب.١٩٩٩م.
- خلاف المفتين. الشريف حاتم بن عارف العوني. دار الصميعي. الرياض.
- الدين، محمد عبد الله دراز. دار القلم – الكويت، ١٤٠٠هـ.
- الروضة الندية شرح الواسطية. زيد بن عبد العزيز الفياض. دار الوطن. الرياض. ١٤٠٤هـ.

- سير أعلام النبلاء. الذهبي. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ١. ١٤٠٩ هـ.
- سيكولوجية العنف و استراتيجية الحل السلمي. خالص جلبي. دار الفكر. دمشق. دار الفكر المعاصر. بيروت. ط ١. ١٤١٩ هـ. ١٩٩٨ م.
- شبهات التكفيريين. عمر بن عبد العزيز قريشي. مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث. ط ١. ١٤١١ هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية. ابن أبي العز الحنفي. تحقيق: ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. بيروت. ط ٢. ١٤١٤ هـ.
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف. يوسف القرضاوي. كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر. ط ٣. شوال ١٤٠٢ هـ.
- صحيح البخاري.أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: د. مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير. اليمامة. ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم. أبو الحسين مسلم بن الحجاج. دار. دار حياء التراث العربي. بيروت. ١٩٧٢ م.
- ظاهرة الغلو في التكفيريوسف القرضاوي. مكتبة وهبة. القاهرة. ط ٣. ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م.
- الغلو في التكفير: المظاهر، الأسباب، العلاج. أبو حسام الدين الطرفاوي.
- الغلو في الدين. الصادق الغرياني. دار السلام. القاهرة. ط ١. ٢٠٠١ م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. دار المعرفة. بيروت.
- فريضة الحوار. عمر عبد الله كامل.
- قواعد الأحكام. العز بن عبد السلام. دار المعرفة. بيروت.
- مجموع الفتاوى. أحمد بن تيمية. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم. مكتبة المعارف. الرباط. المغرب.
- مختار الصحاح. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. دار الكتاب العربي. بيروت. ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

- مسند أحمد. أحمد بن حنبل. مؤسسة التاريخ العربي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ١٩٩١ م.
- مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر. عبد الرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ٢. ١٤٢٣ هـ.
- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول. حافظ بن أحمد الحكمي. ضبط نصه وعلق عليه: عمر محمود أبو عمر. دار ابن القيم. ط ٢. ١٤١٤ هـ.
- المعجم الأوسط. سليمان بن أحمد الطبراني. دار الحرمين. القاهرة. ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.
- معجم مقاييس اللغة. أبو الحسين أحمد بن فارس. تحقيق وضبط: عبد السلام هارون. دار الفكر. بيروت.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. القرطبي. تحقيق: محي الدين مستو وآخرين. دار ابن كثير. بيروت. ط ١. ١٤١٧ هـ.
- المقاصد العامة للشريعة. عز الدين بن زغيبة. دار الصفوة. ط ١. ١٤١٧ هـ.
- مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع. ناصر عبد الكريم العقل. دار الوطن. الرياض. ط ١. ١٤١٤ هـ.
- منهاج السنة النبوية في نقد الشيعة القدرية. ابن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ط ١. ١٤٠٦ هـ.
- الموافقات في أصول الشريعة. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط ١. ١٤١١ هـ.
- نصيحة أهل الحديث. أحمد بن علي بن ثابت البغدادي. تحقيق: عبد الكريم أحمد الوريكات.مكتبة المنار. الزرقاء. الأردن. ط ١. ١٤٠٨ هـ.

الدوريات:

- مجلة المسلم المعاصر. س ١٩. ع ٧٣. أغسطس ١٩٩٤ – يناير ١٩٩٥ م.
- مجلة المنطلق. ع ١٠٥. أيلول ١٩٩٣ م. بيروت.